فاتح السِّند

أو

مُحَمَّد بن القاسم الثقفي

تأليف

نخبة من أساتذة اللغة العربية

دار نهضة مصر للطبع والنشر
الفجالة - القاهرة

إن السماحة والمروءة والندى   لمحمد بن القاسم بن محمد

ساس الجيوش لسبع عشرة حجة   يا قرب ذلك سؤددا من مولد

« حمزة الحنفي »

وُلِــد للجهَــادُ

لعلَّ أصدقَ ما يوصفُ به بطلُ هذه القصةِ أنه وُلِدَ للجِهادِ . فقد نَما فيه حبُّ الجهادِ منذُ نُعومةِ أظفارِه ، حتَّى أصبحَ معشوقَهُ وهواهُ .

لم تُشْغَفْ (١) نفسُه بِلَهْوِ الطفولةِ ، ومِرَاحِ (٢) الصِّبَا ، ومُتَعِ الشّبابِ ، وإنما شُغِفَتْ بخوضِ المعاركِ ، واقتحامِ المخاطِرِ ، ودخولِ المُغامراتِ . . وقد واتَتْهُ الفرصةُ ، وهو فى أوجِ (٣) مجدِهِ ، وقمّةِ انتصاراتِه ، أن يحظى بمسراتِ الشبابِ ، يوم أحبَّته بنتُ ملكِ السِّندِ ، فأبى أن يخضعَ لنداءِ قلبِهِ ، وإنما جعلَ أهدافَهُ وآمالَه ومطامحَهُ (٤) نُصْبَ عينيهِ ، ولم يسمَحْ لشيءٍ أن يَشْغَلَهُ عن غايتِهِ الكُبرَى ، حتى ولو كان حبَّ بنتِ الملك . .

وعلى الرغْمِ من أَنه نَشَأَ فى أحضانِ التَّرَفِ ، وترعرعَ فى أفياءِ (٥) النَّعيمِ ، إذ كان والدُه والياً على البصرةِ ، يتقاضى راتب الوُلاة ، وكان هو قائداً فى مطلعِ شبابهِ . يتقاضى مكافأةَ القُوادِ ، فإنه لم يركَنْ إلى الدَّعةِ ، ولم يُخْلِدْ إلى الرفاهيةِ ، وإنما آثر السيرَ فى طريقِ المتاعب والمشاقِّ والأهوالِ ، لأن لَذَّة الجِهادِ كانت تُسيطرُ على نفسِه ، وتَستولِى على وُجدانه . .

(١) شغفت نفسه : دخل فيها الحب . (٢) مراح الصبا : شدة نشاطه .
(٣) أوج مجده : قمته . (٤) المطامح : الأشياء التى يرتفع إليها الإنسان ببصره .
(٥) الأفياء : الظلال .

ولولا إيمانُه العميقُ بأنه خُلِقَ لحياةٍ أَسْمَى من الحياةِ الناعمةِ المترفةِ لما أَلْحفَ(٢). على الحَجَّاج أن يَنتَظِمَ فى سلكِ الجُندية ، لِيشتركَ فى قتالِ الخوارجِ . وقد اشترك فيها بالفعلِ ، وهو صبىٌّ ناعمُ العُود ، غَضُّ الإهابِ(١) . .

ولم نَسمعْ فيما رُوىَ من أخبارِ الفُتوحاتِ أن شابًّا تولَّى قيادةَ الجيوشِ فى سنٍّ باكرةٍ ، وانتقلَ من نَصْرٍ إلى نصرٍ قبل محمدِ بن القاسمِ ، اللهمَّ إلا أُسامَةَ بنَ زيدٍ ، الذى يُعَدُّ هو الآخر ، مثالاً فذًّا للقيادةِ العسكريةِ فى رَيعانِ الشَّبابِ . على أن يوضعَ فى الاعتبارِ أن أُسامةَ خاضَ معركةً واحدة ضدَّ الرومِ على حدودِ الشامِ . أمَّا محمدُ بنُ القاسمِ فقد خاضَ معاركَ كثيرةً ، وهو أصْغرُ سنًّا من أُسامةَ . .

ولسنَا هنا بِصَددِ المقارنَةِ بين الشَّابينِ القائدَيْنِ ، وإنَّما نودُّ الإشارةَ إلى حقيقةٍ هامةٍ ، وهى أن محمدَ بنَ القاسم ، لو قيس عمْرُه بعدد المعاركِ التى خاضَها وانتصرَ فيها ، والوقائع التى دَحَرَ فيها خصومهُ ، ومزَّقهم شرَّ مُمزقٍ ، لانتهيْنَا إلى نتيجةٍ لا مراءَ فيها ، وهى أن ابْنَ القاسمِ يَحتلُّ أعلى مكانةٍ للطلائعِ المبرِّزَةِ من أبطال التاريخ . .

* * *

(١) ألحف : ألح .
(٢) الإهاب : الجلد .

إنَّ القدرَ شاءَ أن يَنْسِجَ من حياةِ هذا البطلِ قصةَ رائعةَ المهابةِ والجلالِ . . حافلةً بالمغامراتِ ، والانتصارِ ، والحبِّ ، والمجدِ . والنهايةِ الحزينةِ . قصةَ إنسانٍ رفضَ أن يعيشَ حياةَ الآخرينَ مهما يَكُنْ فيها من رفاهةٍ ونعيمٍ . . وإنما عاشَ حياةَ نَفْسِهِ الزاخرة بِالمطامحِ البعيدةِ . . بالآمالِ الصَّاعدةِ . بالأهدافِ التى لا تحدُّها آفاقٌ . . حتى وهو فى سِجْنِهِ بمدينةِ «واسطٍ» ينتظرُ مصيرَهُ المحتومَ ، كان الشجاعةَ نَفْسَها ، والثَّباتَ ذاتَهُ ، والصَّبرَ فى أجلى معانيه . . وهل الجهادُ فى حقيقتِه وكنهِهِ وجوهَرِهِ إلا الشَّجاعةُ والثباتُ والصبرُ . .

أما كفايَتُهُ الحربيةُ فى ميادينِ القتالِ . . فى ساحاتِ الجِهَادِ . . بينَ مَخَالِبِ الهَوْلِ ، وبراثنِ الموت . . فقد كانتْ فوق ما تَتمثَّلُ العبقريةُ الخلاقة من صُوَرِ البطولةِ والإقدامِ .

لقد خاضَ إلى جانبِ معاركهِ العديدةِ فى السِّنْدِ ، معركَتَيْنِ مُتَماثلتينِ فى العُنْفِ والضَّراوة ، معركتى الدَّيْبل والمُلتانِ . . وكلتاهُما فوق طاقةِ المحاربينَ ، واحتمالِ الفاتحين حيثُ استمات أهلُ المدينتينِ فى الدفاع وراءَ جُدُرٍ مُحَصَّنَةٍ ، فضلاً عن أنَّهم قساةُ القلوبِ ، مُتَمرّسونَ بالجريمةِ ، لا يدينونَ بالطاعةِ لأىِّ حاكمٍ فى السِّندِ ، وقد اعترفَ مَلِكُهُمْ بأنَّه لا سلطانَ له عَلَيْهِمْ .

ماذا فعلَ محمدُ بنُ القاسمِ فى أثناءِ اقتحامِ مدينَةِ الديبلِ ؟ أعلنَ عَلَيْها حربًا نَفسيةً ، إذ هاجمها أولاً بأخطرِ المعدَّاتِ

الحربيةِ ، وكانتْ تتمثلُ فى المَنْجَنِيقِ الضّخمةِ التى هدم بها الصَّنم الكبيرَ فيها ، ومن ثَمَّ هَبطتْ الروحُ المعنويةُ عند سُكَّانِ المدينةِ ، فحاربوا المسلمينَ بنفوسٍ يائسةٍ ، وقلوبٍ يتملَّكُهَا الفزعُ . وبالرَّغْمِ من أَنَّهم يفوقونَ المسلمينَ عددًا وعتادًا ، فإنهم أدركوا أنْ لا قِبَلَ لَهُمْ بمقاومةِ ابنِ القاسم وجنودِهِ ، وكان استسلامُهُمْ ضرورةً حتميَّةً تَفْرِضُها ظروفُ القتالِ ! !

وشاءَتْ المُصَادفاتُ ، أو شاءَتْ الخُطَطُ العسكريةُ فى عَهْدِ الوليدِ بن عبدِ الملكِ أن يتمَّ فتحُ السِّندِ والأنْدَلُسِ فى فترةٍ واحدةٍ ، وإن كان غزوُ السِّندِ قد بدأ قبلَ الأندلُسِ بثلاثِ سنواتٍ ، ولكنِّ حظَّ طارقِ بنِ زياد فاتحِ الأندلسِ كان أعظمَ من حظِّ مُحمدِ بنِ القاسم فاتح السندِ ، لأنَّ ابنَ القاسم قُتِلَ بسببِ مؤامرة خسيسةٍ جَعَلَتْ كثيرًا من المؤرخين يُحْجمونَ عن كتابةِ تاريخهِ فى ذلك الحينِ .

ولكن ما لَبِثَ التاريخُ أن نفض (١) غبارَ ذلك الجُحُود ، ودوَّنَ بين صَفحاتِهِ لابن القاسمِ أروعَ ما كُتِبَ لِلأبطالِ الفاتحينَ . . وحَسْبُ ابن القاسم مجدًا وتخليدًا أن يُقَالَ عنه : إنَّه وُلِدَ لِلْجِهَادِ ، وعاشَ فى ساحاتِهِ ، وماتَ ميتةَ المجاهدينَ ، ولحقَ بقافلةِ الأَبرارِ .

---

(١) نفض : أزال .

من الطائف إلى العراق

صحَا محمدُ بنُ القاسمِ ذاتَ يومٍ ، وكان طفلاً غَضَّ الإهابِ ، فوجدَ أسرتَهُ تستعدُّ للرَّحيلِ . . وقفَ برهةً يتأمل أبويه وهما مُنهمكانِ فى جَمْعِ ما لَدَيْهِمَا من أثاثٍ ومَتاعٍ ومُؤَنٍ . . ثم انتهزَ فرصةَ جلوسِ أبيه بِضعَ دقائقَ رَيْثَما يستريحُ وسألَهُ :

– إلى أيْنَ نحنُ ذاهبونَ يا أبى ؟

– رَبَتَ القاسِمُ كَتِفَ ابْنِهِ وقال لَهُ :

– إنّنا مسافرونَ إلى العِراق . .

قال الطِّفلُ :

– ماذا نَفْعَلُ هُناكَ ؟

أجابَ الأبُ :

– سنقيمُ فى البَصْرةِ . . لأننى عُيِّنْتُ واليًا عَلَيْها . .

قال الصبىُّ :

– ومتَى نعودُ ؟

قال الأبُ :

– إنك ستجدُ هناكَ كلَّ الأَشياءِ التى تُحِبُّها . . بساتينَ مثلَ بساتينِ الطَّائفِ ، فيها ما تَشْتَهى الأنفسُ من الفَاكِهةِ . . وصغارٌ فى مثلِ سِنِّكَ ، يلعبون بالأَحْصِنَةِ والسيوفِ الخشبيةِ . .



من الطائف إلى العراق

قال الصبى :

– ولكنى أحبُّ الطائِفَ يا أبى . . وأُحبُّ أن أذهبَ معك كلَّ يومٍ إلى الكعبةِ ، وأَنت تُؤدِّى الصلاةَ هناك . . وأحبُّ أن أسمعَ منك سيرةَ النَّبىِّ وصحبِه وأنتَ جالسٌ بعد الصلاةِ . . وأحبُّ أن أرى الأماكنَ التى كان يتردَّدُ عليها النبىُّ ويَنْشُرُ منها دَعْوَتَهُ . .

طبعَ الأبُ قبلةً حانيةً على خدِّ ابنِهِ وقالَ له :

– سوف نحضُرُ بين الحينِ والحينِ لنزورَ الكعبةَ ، والأماكنَ التى كان يَتردَّدُ عليها النبىُّ ، وتزورَ أيضا أترابك (١) من بنى ثقيفٍ :

طابتْ نَفْسُ الصَّغيرِ لهـذه الكلماتِ ، وجفَّتْ الدموعُ التى كادَتْ تترقرقُ من عيْنَيْهِ ، ثم خرجَ لِيودع أتْرابَهُ وَلِدَاتِ مَلْعَبِه ، قبل أن يُغادِرَ الطَّائِفَ ويذهبَ إلى العراقِ . .

وكما فَعل الصغيرُ مع أطفالِ بنى ثقيفٍ ، مرَّ أبواهُ على رجالِ ونساءِ القبيلةِ يُودعانهم ، ثم ذهَبَ الأبُ إلى الكعبةِ وصلَّى عندها ركعتينِ ، وسألَ الله أن يُوفِّقَهُ فى حياتِه الجديدةِ ، وبعد ذلك استقلتْ الأسرةُ المؤمنةُ المطايَا ، واتَّجهتْ إلى العراقِ . . ثم نَزلَتْ بالبصرةِ ، حيث تولَّى القاسمُ شُئونَ هـذه المدينةِ العريقةِ .

كان الحجَّاجُ فى أول عَهده بإمارةِ العراقِ ، وكانت ثورةُ

---

(١) الأتراب : الذين فى سن واحدة .

الخوارج (١) تَموجُ (٢) فى كلِّ مكانٍ . ومن ثَمَّ فإنَّ الحجاجَ قَرر أن يخمدها بقوةِ السلاحِ ، وأن يَقضِيَ عليها قبل أن تُودِى به (٣) . .

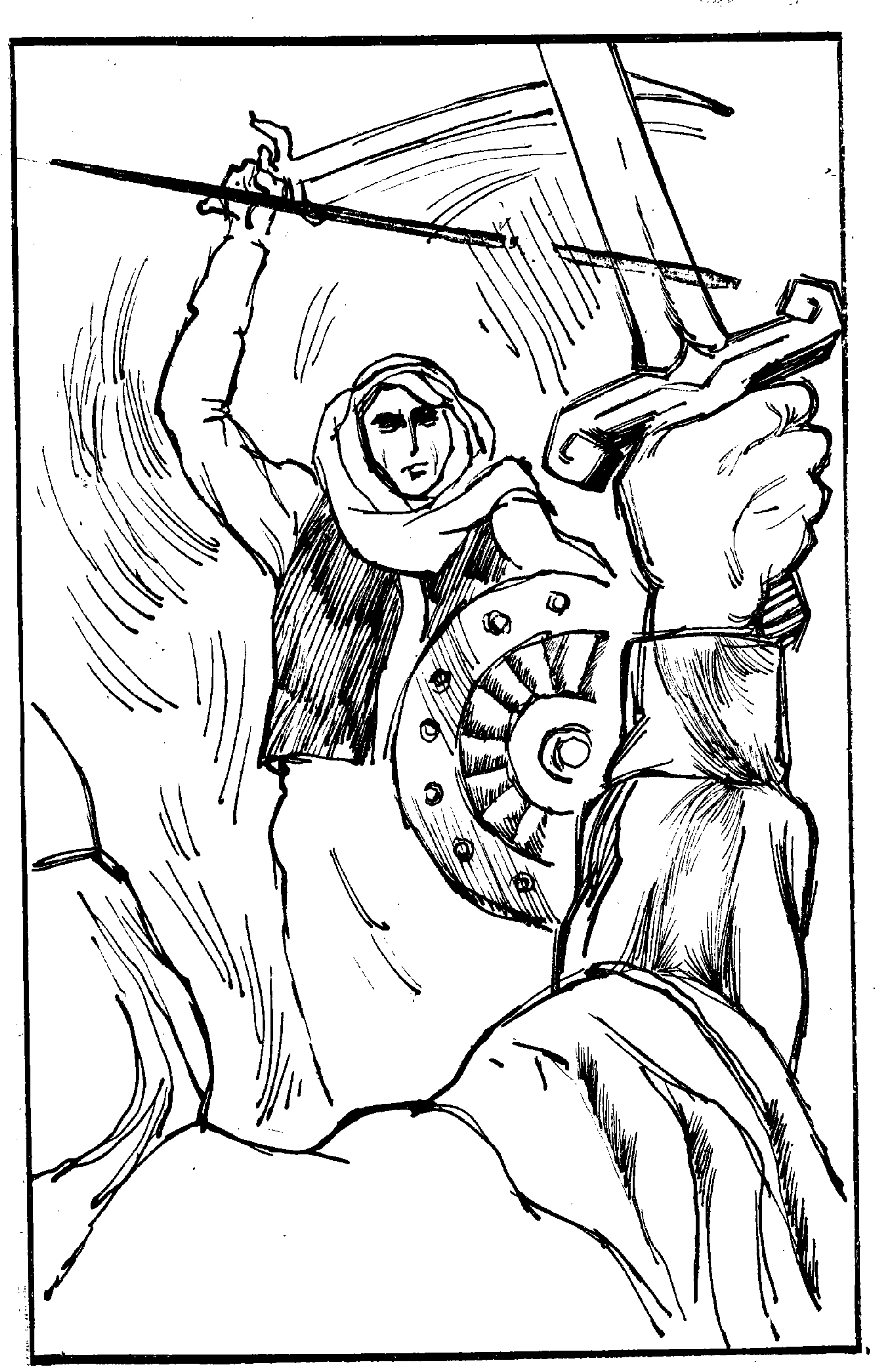
وفعلاً نشبَ القتالُ بين جَيْشِ الحجَّاجِ والمقاتلينَ من الخوارجِ . . وكان كلُّ من يَقعُ أسيرًا من الخوارجِ ، يتولَّى الحجاجُ قتلَهُ بيدهِ ، وقد قُتِلَ فيمَنْ قُتِلَ آدمُ بنُ عبدِ الرحمنِ الذى كان لِقَتْلهِ أثرٌ عميقٌ فى سَيْرِ أحداثِ هذه القصةِ . وفى النهايةِ المؤلمةِ التى لَقيهَا بطلُها محمدُ بن القاسمِ . .

ولما كَثُرَ عددَ القَتلَى من الخوارجِ ، تذمَّرَ أهلُ العراقِ وراحوا يُعلنون سخْطَهُمْ على الحَجاجِ وعهدهِ فى مَجالِسِهِمْ وندواتِهِمْ ، مما جعلَ الحَجاجَ يفكرُ فى بناءِ مدينةٍ تضُمُّ جندَهُ ، وكان أغلبُهُمْ من أهلِ الشام وآلهِ وشيعَتِهِ . وفعلاً قام ببناءِ هذه المدينةِ ، وسمَّاها مدينةَ واسطٍ ، وسرعانَ ما قامتْ بها حوانيتُ للبيعِ والشراءِ ، وكان التجارُ يؤُمُّونها (٤) مِنْ كلِّ مكانٍ . .

انْتَقَل القاسمُ وأسْرتُه إلى المدينةِ الجَديدة ، وكان محمدُ بن القاسمِ على صِغَرِ سنِّه ، إذ كانَ فى حوالى الثانيةَ عشرةَ ، يَلْتقى بالمقاتلين الذين أعدَّهُمْ الحجاجُ للقضاءِ على أعدائِه ، وفَتْحِ البُلدانِ المتاخمةِ للعراق . .

ووسَطَ هؤلاء الفرسانِ الذين يجرى فى دَمِهمْ حبُّ القتالِ والمغامراتِ ، كان ابن القاسم يعيشُ بروحه ووجدانِه . . يتلقى منهم

(١) الخوارج : الذين خرجوا على علىّ بن أبى طالب وصحبه ورفضوا التحكيم .
(٢) تموج : تضطرب . (٣) تودى به : تهلكه . (٤) يؤمونها : يقصدونها .



ووسط هؤلاء الفرســان الذين

مبادىءَ المبارزةِ ، وقواعدَ الطَّعنِ والضرب . . وكان يَعى كلَّ هذه الدروس بنفسٍ تواقةٍ إلى المعاركِ ، مَنْهُومةٍ بالمغامراتِ . .

ولم يكن أحد لِيَفْطِن إلى أن الصبىَّ الصغيرَ يملك من مواهب القيادةِ ما يعزّ ويندرُ فى كثيرٍ من شبابٍ وَشيوخِ المسلمينَ . . كلُّ ما كان يتوقَّعُه الذين على صلةٍ قريبةٍ به ، أنه سيكونُ فَخْرَ بنى ثقيفٍ فى ميادين الحروبِ .

ولطالما شهدتْ شوارعُ مدينةِ واسط الصبىَّ محمدَ بن القاسمِ ، وهو يتقلَّدُ درعَهُ ، ويمتشقُ سلاحَهُ ، كأنه بطلٌ قادمٌ من معركةٍ ، أو أحدُ هُواةِ الصيدِ والقَنَصِ . وكان الحجاجُ يزورُ القاسمَ فى هذه المدينةِ بين حين وآخر ، ويدورُ الحديثُ بينهما حول الخوارجِ ، والفتنةِ الداميةِ التى تسودُ العراق ، والوسائِل التى اتخذها للقضاءِ عليها ، وكان الصبىُّ يَجلسُ على مَقْربةٍ منهما ، وكله انتباهٌ لما يدور فى المجلسِ ، ويودُّ لو سُمِحَ له بالاشتراكِ فى الحديثِ ، لِيُعْرِبَ عن رغبتِهِ فى قتالِ الخوارجِ .

وكأنما كان الحجَّاجُ يُحسُّ بما يدورُ فى عَقْلِ الصَّغيرِ ، فتنفرجُ شَفَتَاهُ عن ابتسامةٍ راضيةٍ ، ونادرًا ما كان يَبتسمُ ، ويقول للقاسم :

– إن ابْنكَ هذا سيكونُ له شأنٌ عظيمٌ . .

وبالطَّبع يتألق مُحَيَّا القاسمِ بالبِشْرِ والسعادةِ ، ويودُّ من أعماقِه لو تحقَّقتْ نبوءةُ الحجَّاجِ ، ويُصْبِحُ محمدُ الصغيرُ بطلاً من

أبطالِ بنى ثقيف ، يُسلَك فى عِدادِ المشاهيرِ من أبناءِ القبيلةِ .

وذاتَ يومٍ عرضَ محمدُ بن القاسم على الحجاجِ أن يُشْرِكَهُ فى قتالِ عبدالرحمن بن الأشعثِ ، وكان من ألدِّ (١) أعداءِ العهدِ الأمويِّ . وألحَّ الصبىُّ على الحجّاجِ أن يلبِّىَ له هذا الطلبَ . . ولكنَّ الحجاجَ تردَّدَ فى أولِ الأمْرِ ، ثم ما لَبِثَ أن أذْعَنَ (٢) لرغبة الصَّبىِّ .

* * *

كانتْ الفرحةُ تملأُ جوانبَ نَفْسِ ابن القاسم ، وهو يَمْتَطِى جوادَهُ ويسيرُ وسَطِ المقاتلينَ إلى أرضِ المعركةِ . .ولم يكن أحدٌ من فرسانِ الحجاجِ يتصوَّرُ أن هذا الصبىَّ سيفعلُ شيئاً ذا بالٍ فى ميدانِ القتالِ . وكانوا يتهامسُونَ : لِمَ سَمَحَ الحجاجُ لصبىٍّ مثلِ هذا بالاشتراكِ فى الحَرْبِ ، ، والنزولِ إلى مَعْمَعَانِ (٣) القتالِ . . وكانُوا مشفقين (٤) على الصبىِّ من هذه التجرِبَةِ القاسيةِ . ولكن ما لبثَ أن زالَ عنهم الإشفاقُ ، وحل محلَّهُ التقديرُ والإجلالُ للصبىِّ الصَّغيرِ . . إذ ما كادَ جيشُ الحجَّاجِ يلتحِمُ بِجيشِ عبدِالرحمن بن الأشعثِ فى موقعةِ دَيْرِ الجماجمِ ، حتى مَرَقَ محمدُبن القاسم فى صفوفِ الأعداءِ كالسَّهم النافِذِ ، وراح يُوسِعُهُمْ طعنًا وضربًا ذَاتَ اليمين وذاتَ اليسارِ ، حتى ركبَهُمْ الذعرُ ، ووَلّوْا الأدبارَ . .

(١) ألد أعدائه : أشدهم خصومة . (٢) أذعن : خضع .
(٣) معمعان القتال : شدة حرارته . (٤) مشفقين : خائفين .

عادَ جيشُ الحجاج من المعركةِ ، تسبقَه أهازيجُ (١) النصرِ . وكانتْ العيونُ كلُّها مُصَوَّبةً نحو ابنِ القاسم ، شاخصةً إليهِ . . إنه فعلَ الأفاعيلَ بأَعداءِ الحجَّاجِ ، وأتى من أفعالِ البطولَةِ فى أثناءِ القتالِ ما لم يأت بمثلهِ كثيرٌ من الأبطالِ المبرِّزينَ . .

* * *

ظلَّ الحجاجُ بضعةَ أيامٍ مأخوذاً بما سَمِعه عن شجاعةِ ابنِ القاسم ، وأخذ الزَّهْوُ (٢) بمجامعِ قلبه ، لأن صبيًّا صغيراً من أبناء أسرتهِ نَبغَ مبكِّرًا في فنون الحرب ، ويَنْتظره مستقبلٌ باسم فى ميادينِ القتالِ . . ورُبَّما يُصْبحُ قائداً مَرْمُوقاً فى سنٍّ مبكرةٍ مثل أُسامة بن زيدٍ .

راقَ للحجاجِ أن يستمعَ إلى وَصْفِ المعركةِ من ابن القاسِمِ نَفْسِه . كان محمدٌ – وهو يَحْكى للحجَّاجِ تفاصيل ما حدثَ – كأنه يوقِّعُ لَحنًا جميلاً يشنّف به أُذُنَيْ ابن عمهِ . حتى إن الحجَّاجَ كَان يستعِيدُه وصفَ أعدائِهِ ، وهم يَتَقهقرونَ أمامَهُ فى رُعْبٍ وشتاتٍ ! !

وبينَا الحجاجُ مَزْهوٌّ بهذا النصرِ ، جاءته أنباءٌ بأن عبدَالرحمن بنَ الأشعثِ جمع فلولَ جَيْشهِ ، واستردَّ قوتَه ، وتأهَّب لمعركةٍ جديدةٍ . .

وهنا أقسمَ الحجاجُ أن يَتولَّى بنفسهِ تأديبَ الخارجين عليه .

---

(١) أهازيج : أغان .   (٢) الزهو : الفخر .

ودعَا ابنَ القاسِمِ لأن يكونَ بجوارِهِ فى مَيْدَانِ القتالِ . .

خرجَ الحجاجُ على رأس الجندِ لِمُحـاربةِ عبدالرحمنِ بنِ الأشعث ، وما إن دارتْ رَحَى المعركةِ حتى اقتحم ابنُ القاسم الصفوفَ ، كما فعل فى المعركةِ السابقةِ ، وظلَّ يضربُ يَمْنَةً ويسرةً حتى انهزمَ أعداءُ الحجَّاج ، ولَقىَ ابنُ الأشعث مَصْرَعه ، وهنا امتلأ قلبُ الحجَّاج بالطُّمأنينةِ ، وأدركَ أن كثيراً من العَقباتِ زالَتْ من طريق المستقبل ، وزادَ من فَرْحَتهِ أن ابنَ القاسمِ سيكونَ سـلاحاً بتاراً (١) فى يده ، يُرهب أعـداءَهُ ، ويستعينُ بـه على فَتْح البلدانِ ، لأنـه شَهِـدَ بِعَيْنَيْهِ كيفَ يتمتَّعُ هـذا الشابُّ بقلبٍ جرىءٍ وعزيمـةٍ صَـلْدَةٍ .

* * *

ولكنْ بعد أن خَـلاَ ابن القاسم إلى نَفْسِهِ عَشيَّةَ النَّصر ، راحَ يتذكَّرُ أحداثَ المعركةِ ووقائِعَ القتالِ ، ويستعرضُ الأسبابَ التى من أَجْلِها شَهَـرَ الخوارجُ أَسْلحتهم ، وخاضُوا عدداً من المعاركِ . . وانْبَثَقَ إحساسٌ فى نَفْسِهِ بعدم الرِّضا عما حدثَ ، وَوَدَّ لو أَنَّـه حـاربَ أعْـداءَ الإسْـلامِ ، بدلاً من أن يُحاربَ إِخْـوَته فى الدِّينِ ، لأسبابٍ سياسيَّةٍ ، وصمَّمَ على أن يَبْذُلَ من نَفْسِه وطاقتهِ جهْـدَ ما يَسْتطيعُ يوم تُتاحُ له فرصةَ القتالِ إذا دعا داعى الجهـادِ لفتح أحَـدِ الأمصارِ . .

---

(١) بتارا : قاطعاً .

دمشق منــارة العَــالم

كانتْ دمشقُ – مـذ أصبحتْ عاصمـةَ الخلافَةِ الأمويَّةِ – منارةَ العَالمِ كلِّه . . وكانتْ فى عَهْدِ الوليدِ بنِ عبدالملكِ قد بلغَتْ قمـةَ التألُّقِ والازدهـارِ. فالجيوشُ الإسلاميةُ ترفرفُ أَعلامُها فى كلِّ مكانٍ فى البرِّ والبحـرِ ، من المغرب الأقْصَى حتَّى حـدود الصِّين . . وجميعُ الدُّولِ تَنظرُ برهبةٍ وخوف إلى هـذه المدينةِ العظيمةِ ، لأنَّ قوة الإسـلام أَصبحتْ تُسيطرُ على معظَمِ أرجـاءِ العالَم ، وتنشرُ فيها المبادىءَ الإلهـيَّةَ التى أنزلها اللهُ على قلبِ نبيِّه الكريمِ .

كان الحجَّاجُ من أبرزِ الولاةِ فى الخِـلافةِ الأمويةِ ، وأَقربِهم إلى قلبِ الوليدِ وعقلِه وإحساسه ووجدانِه . . لأنَّ الوليدَ كان يعلمُ أن له اليَد الطُّولَى فى القضَاءِ على خصوم الخلافةِ ، ولهـذا كان لا ينقضُ أمراً أبرَمـهُ الحجـاجُ ، كما أعطى له مطلقَ الحرية فى اتخاذِ ماشاءَ من القراراتِ ، دونَ الرجوعِ إليه ، ومن هُنا كانتْ أوامرُ الحجَّاجِ تأخذُ طريقَها إلى التنفيذِ دونَ أخْذِ موافقةٍ عليها من دِمَشْق . .

وذاتَ ليلةٍ بَيْنَما كانَ الحجَّاجُ جَالساً فى قَصْرِ الولايةِ بالبَصرَةِ يديرُ شئون العراقِ ، وكان مَجلسُهُ يَضمُّ نفراً من خِيرةِ رجالِ الرَّأىِ وبعضِ القوَّادِ ، ومن بَينِهِم محمدُ بنُ القاسم ، إذا برجُلٍ يدخلُ

مسرعاً ، ووجهُه يتصبَّبُ من العرقِ ، وجسدُهُ ينتفض من الجَهْدِ(١) ، وهيئتُه تدلُّ على أنه يَحْمِلُ نبأً خطيراً . .

سادَ السُّكونُ مَجْلِسَ الحجَّاجِ لحظةً ، قطعَها الرجلُ بقوله :

– معذرةً يا سيِّدى الوالى . . إذا كنتُ قد اقتحمتُ مجلِسَكَ فى هـذه السَّاعةِ ! !

قال له الحجَّاجُ :

– ما خطبُكَ أيها الرجُلُ ؟ !

أجابَ الرَّجُلُ :

– جئتُ أنقلُ إليكَ استغاثَةَ النِّساءِ المسلماتِ . . فقد اسْتَجَرْنَ بكَ حين هَجَمَ عليهنَّ القراصنةُ ! !

قال الحجَّاجُ :

– أىُّ نساءٍ ؟ وأى قراصنةٍ أيُّها الرجلُ ؟

أجابَ الرجلُ :

– يا سيدى سأقص عليك القصةَ من أوّلها . . إن دولةَ السندِ المجاورةِ لنا بها جزيرةٌ ، اسمها جزيرة الياقوت(٢) . . يسكنها عددٌ منَ النساءِ المسلماتِ ، وقد رَغِبْنَ فى تَرْكِ الجزيرةِ ، والهجرة إلى العراقِ حتى يُصْبِحْنَ فى كَنَفِكَ(٣) ، وتحتَ رعايَتِك . . ولما طلبنَ من الملكِ زاهرٍ أن يأذنَ لهنَّ بالرحيلِ ، أعدَّ لهنَّ سفينةً كبيرةً ،

(١) الجهد : المشقة .
(٢) سميت جزيرة الياقوت لحسن وجوه نسائها .
(٣) الكنف : الجانب .

وأَمدَّهُنَّ بما يَحْتَجْنَ إليه من المؤنِ . ومنَحَهُنَّ كلَّ التيسيراتِ فى الرَّحيلِ إلى العراق . .

قال الحجَّاجُ :

– ثمَّ ماذا ؟

قال الرجلُ :

– وبينا السفينةُ فى عُرضِ البحرِ ، إذا بقَراصنةِ مدينةِ الدَّيبل يُحيطونَها بزوارِقهمْ ويعودونَ بها إلى جزيرتهمْ ، ويسلبُون كلَّ ما تتحلَّى به النساءُ من ذَهبٍ وفضَّةٍ ، كما أخذوا كلَّ ما معهُنَّ من متاعٍ . . وفيما هم يَسْلبونَهنَّ الحلىَّ والمتاعَ ، إذا بواحدةٍ منهنَّ تصرخُ :

– أَدْرِكنا يا حجاجُ ! !

ولكنَّ القراصنة استهزأوا بها ، ولم يأبَهُوا بصُراخِهَا ! !

* * *

ولما فرغَ الرجلُ من حديثِه كان الحجاجُ قد أخذَ منه الغضبُ ، وتَغيرتْ ملامحُ وجهِهِ ، وقرّر أن يتَّخِذَ إجراءً حاسماً ضدَّ قَراصنةِ الدَّيبلِ . . ولكنْ قبلَ أن يُعلن قرارَهُ سارعَ محمدُ بن القاسم بقوله :

– دَعْنى أذهبْ إلى مدينةِ الدَّيبلِ يا ابن العمِّ ، وأؤدبْ هؤلاءِ القراصِنَة . .

أجاب الحجَّاجُ :

– واللهِ لأقطعنَّ دابِرَهُمْ ، ولأحزِمَنَّهُمْ حَزْمَ السَّلَمَـةِ . . ولكن تَمَهّلْ يا ابن القاسم . . فإن الأمـرَ يحتاج إلى رويَّةٍ وتفكيرٍ ، ويحتاجُ أيضاً إلى تَخْطيطٍ وتدبيرٍ . .

قال أحد الحاضرينَ :

– يحسنُ يا أميرَ العراق أن نُفاوضَ مَلِكَ السِّندِ فى إعادةِ النِّسَاءِ الأسيراتِ . . فإن استجابَ حَصَلْنَا على ما نريدُ دون إراقةِ دماءٍ ، وإن رفضَ فلا مفرَّ من استخدامِ القُوَّةِ . .

سكت الحجاجُ برهةً بَدا عليه خلالها أنه استصوبَ هذا الرَّأىَ ثم قال :

– سأبعثُ برسالةٍ إلى ملكِ السِّندِ ، أشرح له فيها ما حدثَ ، وأطلبُ منه ردَّ الأسيراتِ ، وفى ضَوْءِ ما يقررُه الملكُ سأُحدِّدُ موقفِى : إما السلمُ ، وإما الحربُ ! !

وما هِىَ إلا ساعةٌ حتى كان رسولُ الحجَّاجِ فى طريقهِ إلى ملكِ السِّندِ ، يحملُ رسالةً هامَّـةً إليه .

ما إن قرأَ الملكُ رسالةَ الحجَّاجِ حتَّى تَملكَته الحيرةُ والاضطرابُ . .

إن لصوصَ الديبل خارجون على طاعَتِه ، ولا سلطانَ له عليهمْ . . وإن الحجَّاج رجلٌ قوىُّ الشكيمةِ[١] ، مرهوبُ الجانب . .

---

(١) قوى الشكيمة : شديد النفس أبى .

إنه إذا حاولَ أن يُسَالِمَ اللصوصَ ، فسوف يُغضِبُ الحجَّاجَ ، ويَتعرضُ لحرب ضاريةٍ . .

وإذا حاول أن يُرضِيَ الحجَّاجَ فسوفَ يملأ اللصوصُ مملكتَه شَغبًا واضطرابًا !

كيف يخرجُ من هـذا المأزقِ إذنْ ؟

قرَّرَ بعد تفكيرٍ عميقٍ أن يبعثَ بردٍّ إلى الحجاج يشرحُ فيه حالةَ مدينةِ الدَّيبلِ ، وفعلاً بعثَ برسالةٍ أوضحَ فيها للحجاجِ أنَّ لُصوصَ الديبل خارجون على القانونِ ، وأنه عجزَ عن مُجابهتِهِمْ ، ولاَ طاقَـةَ له بِرَدْعِهِمْ ، وطلب منَ الحجاجِ أن يُرسلَ حملةً – إذا شاءَ – لتأديب هؤلاء اللصوصِ ، وأكَّد له فى رسالته أنه سيقفُ موقفاً سلبيًّا ، حتى ولو دُمرتْ مدينةُ الدَّيبل عن آخرِها ! !

ما إن وَصَلَ ردُّ الملك إلى الحجاجِ حتى أدركَ أن الحربَ لا مفرَّ منها ، ولكنَّه قرر أن تكونَ حرباً محدودةً ، أى مقصورةً على مدينةِ الدَّيبلِ ، ما دام ملكُ السندِ قد وقف موقفًا سلبيًّا من هؤلاءِ اللصوصِ ، وفوَّضَ الحجاجَ فى أن يَصنعَ بهـذه المدينةِ ما يشاءُ . .

* * *

أرسلَ الحجاجُ حملةً صغيرةَ العددِ بقيادةِ ابنِ نبهان ، وكان أحـد ضُباطِه المهرةِ . . ولكنَّ هـذه الحملةَ لم يكنْ بإمكانِها الاستيلاءُ على المدينةِ ، لأنَّها أقلُّ عدداً وعتاداً ، ومن ثَمَّ قُتِلَ قائدُها ، وعددٌ من أفرادِهَا ، ثم عادَ الباقونَ جرْحَى ومُصَابينَ .

* * *

ماذا فعلَ الحجَّاجُ بعد أن عَلِمَ بما حدثَ لِحَمْلَةِ ابنِ نبهان ؟ . . صمَّمَ على إرسالِ حملةٍ أخرى ، وأمَّر عليها ضابطاً اسمُه بُديل . . وانتظرَ أن تَسْقُطَ مدينةُ الدَّيبل على يَدَيْهِ .

إلا أن القدرَ كان بالمرصادِ لقائد الحَمْلَةِ الثانيةِ ، فما إن لَمحَ جوادُه الفيلة التى يركبُها لُصوصُ الدَّيْبَل ، حتى جمحَ به ، وحاول القائدُ أن يردُّه إلى أرضِ المعركةِ دُون جَدْوَى ، ورأى اللصوصُ ما يُعانيه الضابطُ العربىُّ ، وهو على ظَهْرِ جوادِهِ ، فأحاطُوا به ، ولكنَّه ظلَّ يقاتِلُهمْ حتى انْثَلَم (١) سيفُه ، وكلَّت يدُه ، وتناولَتْه سيوفُ أعدائِهِ لِيَلْحَقَ بِموكبِ الشُّهَداءِ . .

* * *

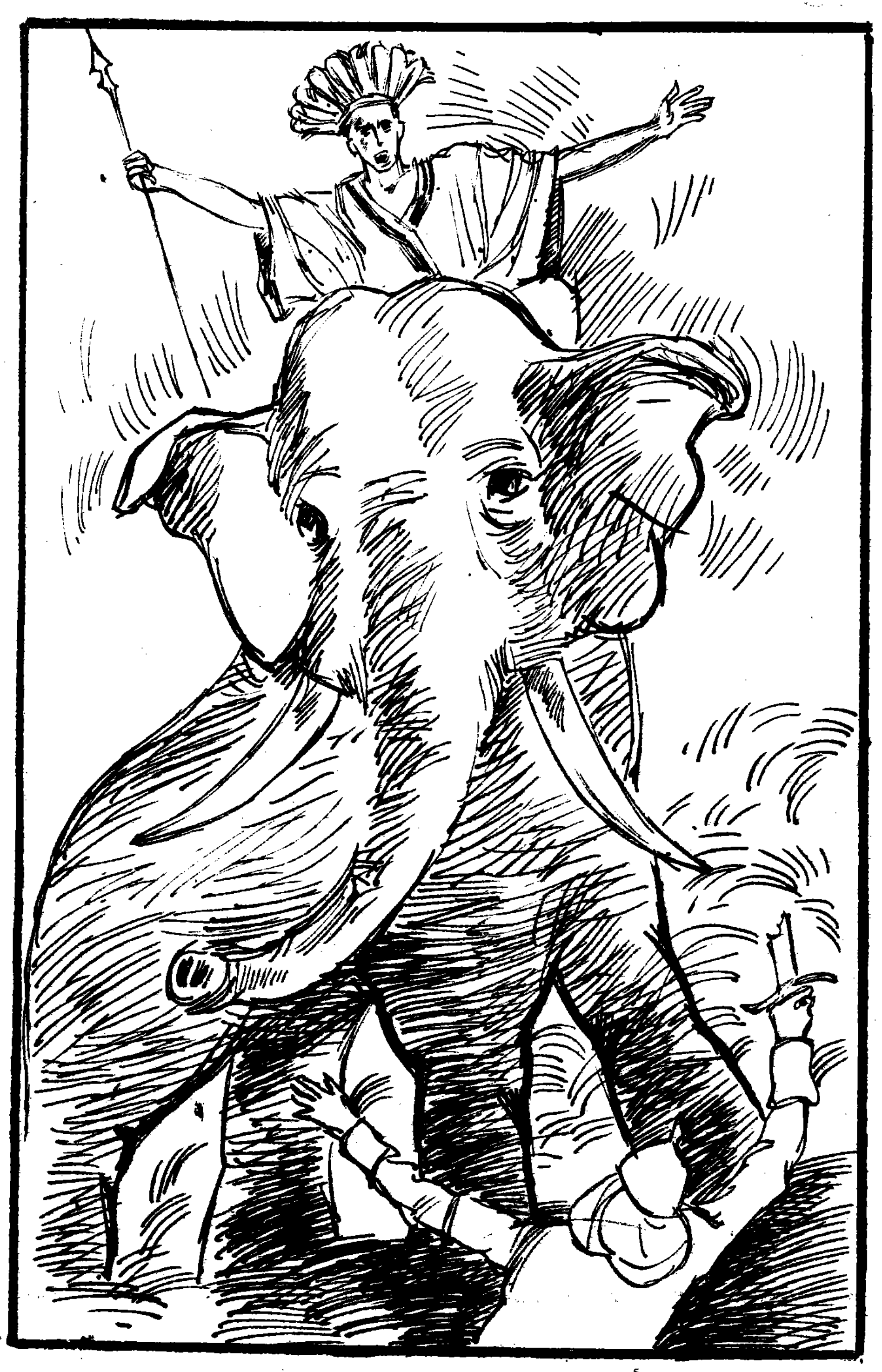
كان الحجَّاجُ فى مجلسِه الحافلِ بِوجوهِ العراقِ حين جاءه نبأُ استشهادِ « بديل » وانتصار اللُّصوصِ على رجالِه ، فلا عجبَ أن يَأخذَ منه الحزنُ كلَّ مأخذٍ ، ولا عجبَ أن يمتزجَ الحزنُ بالغضبِ فى نَفْسِه ، فيقررَ القيامَ بحربٍ شاملةٍ على السِّندِ كلِّها ، حتى تَدُوسَ سنابكُ (٢) الخيلِ العربيةِ كلَّ شِبرٍ فى هذه البلاد .

وفيما هو فى غَضبه وحزنِه ، إذا بابن القاسم يقفُ وسَط المجلسِ ويقولُ للحجَّاجِ :

— أنا لها يا ابنَ العمِّ . . دَعْنِى أَخُضْ هذه الحربَ الشَّاملةَ . .

---

(١) انثلم : انكسر . (٢) سنابك : حوافر .



إلا أن القدر كان بالمرصاد لقائد الحملة الثانية

قال الحجاجُ :

– لا بأس أن تَخُوضَها تحتَ إمرة أبى الاسودِ جهم ، فإن حرباً كهذه تحتاجُ إلى قائدٍ محنَّكٍ خبرَ الحربَ ، واصْطَلَى بنيران المعاركِ . .

قال ابنُ القاسم فى اعتدادٍ :

– ولماذا لا أكونُ أميراً للجيشِ ؟

ردَّ الحجَّاجُ :

– أميراً للجيش ؟ إنك مازلتَ شابًّا فى مُقْتَبل العُمرِ . . وعندنا من الضُّبَّاطِ من هو أكبرُ منك سنًّا !

قال ابنُ القاسم :

–كيف تستكثرُ القيادةَ علىَّ؟ ألم يكن أسَامةُ بنُ زُيد فى مثل سنِّى حين أمَّـره النبىُّ على جيشٍ يضمُّ كبارَ الصحابةِ والمهاجرينَ ؟

التفتَ الحجَّاجُ لمن حولهُ وقال لَهُمْ :

– ما رأْيُـكم ؟

ردَّ أحـدُهُم :

– إنه جديرٌ بقيادةِ الجيشِ ؛ فقد خاض معكَ المعركةَ الأخيرةَ ، وأنزلَ الرُّعبَ بقلوب أعدائِك . .

وقال آخــر :

– أسند إليه هذه المهمةَ ياسيدى الوالِى ، وسوف يَجْعل اللهُ نهايةَ لصوصِ الديبلِ على يَديه .

وقال ثالث : إنَّ ابنَ القاسمِ سيحقق فى السند ما حقق أسامةُ بن زيد على حدودِ الشامِ .

ظلَّ أصحابُ المشورةِ يتكلمونَ واحداً بعدَ الآخر حتى فَرَغوا من إبداءِ آرائِهِمْ ، وكانُوا مُجمعينَ على أنَّ ابنَ القاسِمِ خيرُ من يؤدبُ لصوصَ الدَّيبلِ ، ويثأرُ لشهداءِ الحملتين ، ويفك أسرَ النساءِ المسلماتِ . .

وأمامَ هذا الإجماعِ وافق الحجَّاجُ على إرسالِ ابن القاسمِ قائداً للجيشِ ، على أن يبدأ بغزوِ مدينةِ الدَّيبلِ أولاً ، ثم فَتْحِ باقى مُدنِ السِّندِ واحدةً بعدَ الأخرى .

* * *

كانَ الجيشُ الذى أعدَّهُ الحجاجُ يتكونُ من ستةِ آلافِ مقاتلٍ معظمهُم من أهلِ الشَّامِ ، وقد جهَّزهُ الحجاجُ بكلِّ ما يحتاجَ إليهِ من الخيوطِ والمسَالِّ والخَلِّ . . وكانت وَسيلتُه فى تزويد الجيشِ بالخلِّ أن عَمِدَ إلى إحضارِ كميَّةٍ من القُطنِ المحلوج ، ثم أمَرَ بأن يُنْقَع فى الخلِّ ، ويُجفَّفَ بعد ذلك فى الظِّلِّ ، وقالَ : إذا وَصَلْتُم إلى السِّند ، فإن الخَلَّ هناك يكاد يكونُ معدومًا ، فانْقَعُوا هـذا القُطْنَ فى الماءِ ، ثُمَّ اطْبخوا به واصْطَبغُوا . .

ابن القَاسم قَـائداً

ما أروعَ اللحظةَ التى تَقرر فيها تعيينُ محمدِبن القاسمِ قائداً للجيشِ ! لقد كانت بدايةَ تاريخٍ جديدٍ لدولةِ السّندِ ، بل إشارةً من القدرِ بفَتْحِ نافذةٍ من النّورِ على تلك الدّولةِ التى ظلتْ غارقةً فى الظلماتِ أحقاباً[1] طوالاً . . إذ كانت تسودُها الوثنيةُ ، ويَسوسُها حكمُ الفردِ ، ويعيشُ فيها الناسُ على أوهامٍ مُنحدرةٍ من مُختلف القرونِ .

* * *

انفضَّ مجلسُ الحجَّاجِ ، وانصرف كلُّ من فيه لشأنهِ . . إلا ابن القاسم ، فقد انطلقَ إلى بيوتِ عددٍ من المقاتلينَ الذين شَهدوا معركَتَىْ الدَّيبل ، وراحَ يسألُهمْ عن طبيعةِ هـذه المدينةِ ، وأسلوب أَهْلِهَا فى القتالِ .

كان مما عَرفه أن هناكَ صنمًا ضخماً يقومُ على خِدمتِه عـددٌ كبيرٌ من الكهنةِ ، وتحتَ القاعدةِ التى نُصِبَ عليها الصَّنمُ سراديبُ يَختَفى فيها أَهْـلُ المدينةِ إذا حوصروا فى أثْنـاءِ القتالِ ، ثم يخرجونَ منها لطعنِ المقاتلينَ من الخلفِ إذا دخلوا المدينةَ. وفوق الصَّنمِ ساريةٌ[2] مرتفعةٌ ، عليها رايةٌ حمراءُ واسعة ، إذا لفحَتْهَا الريحُ رأتها المدينةُ كلُّها .

(١) الأحقاب : جمع حقب ، والحقب ثمانون سنة. (٢) السارية : العمود الذى ترفع عليه الراية.

كما أن أهلَ الديبلِ ، بل أهلَ السِّند كلَّهم ، يركبونَ الفيلةَ فى أثناءِ القتالِ ، حتى يُخيفوا خيلَ مُقاتِليهِمْ ، لأنَّ الخيلَ تفزعُ من مَنظرِ هــذا الحيوانِ الضَّخم ، ومن ثَمَّ فإنَّه يجبُ أن يوضعَ فى الاعتبارِ أمرانِ :

الأول : أن يُهدمَ الصَّنمُ حتى يدخَل اليأْس فى قلوبِ أهــلِ المدينةِ .

والثانى : أن تـكونَ هناكَ وسيلةٌ لمجابهةِ (١) الفيلةِ قبل أن تُخيفَ الخَيل فتجمَح براكبيها ويَخسر المسلمونَ المعركةَ ، كما خَسِرُوها فى المرتينِ السابقتينِ . .

باتَ ابنُ القاسمِ ليلتَه يفكرُ فى وسيلةٍ يهدِمُ بها الصَّنَمَ الكبيرَ ، حتى يحقِّق أولَ خُطوةٍ فى طريقِ النَّصرِ . وأخيراً اهتدَى إليها بعد ساعاتٍ من الأرقِ والسُّهادِ . .

إن هَـدْمَ صنمٍ كبيرٍ بهــذه الضَّخامةِ لابُدَّ أن يكونَ عن طريقِ قذفهِ بحجرٍ كبيرٍ يهوى عليه كالصَّاعقةِ (٢) فيجعلُه قطعًا متناثرةً . . إذن لابُدَّ من منجنيقٍ ضخمةٍ يكون بإمكانها حملُ الأحجارِ الكبيرةِ وقذفُها . ولكن من يَصنعُ هذه المنجنيقَ ؟ وهل يتسعُ الوقتُ لصناعتِها قبل الزحفِ على السندِ ومغادرةِ العراقِ ؟

إن فكرةً كهذه لابُـدَّ أن تُعرضَ على الحجاجِ ليتخذَ فيها قرارَهُ . .

---

(١) مجابهة : ملاقاة . (٢) الصاعقة : ما يسقط من السماء فى رعد شديد .

وفى الصّباح ذهب ابن القاسم إلى الحجّاجِ ، وعرضَ عليه فكرةَ المنجنيقِ ، فوافقَ الحجَّاجُ عليها ، وأمر بإحضارِ أمْهَرِ الصُّناعِ ، وطلب منهم صُنْعَ منجنيقٍ ضخمةٍ لم تَشْهَدْ له العربُ مثيلاً فى تاريخ حروبها ، على أن يستمرُّوا فى العملِ ليلاً ونهاراً حتى يَفرغوا منها فى أقربِ وقتٍ . .

نفَّذ الصناعُ أمرَ الحجاجِ ، وبذلوا كلَّ جُهْدٍ مستطاعٍ حتى انْتَهَوْا من صُنْع المنجنيقِ خلالَ فترةٍ وجيزةٍ ، وأطلق عليها الحجاجُ اسم « العروس » لأنَّ هندستَها كانت غايةً فى الدقةِ والإتقانِ ، ثم أمَرَ بشَحْنها على مَتْنِ إحدى سُفُنِ الأسطولِ الذاهبِ إلى مدينةِ الدَّيبَلِ . .

وفى الليلةِ المحددِّ صباحُها لرحيلِ الجيشِ اجتمع الحجاجُ بابنِ القاسمِ ليزوِّده بآخر التعليمات . .

بدأ الحجاجُ حديثَه باستعراض موقفِ المسلمين من السِّند مُنْذُ فكَّروا فى فَتحِها والاستيلاءِ عليها . .

قالَ فيما قالَ لابن القاسم : إن أميرَ المؤمنين عثمانَ بنَ عفان كان أوَّلَ من فكَّر فى فتحِ السِّند ، فقد طلبَ من عبدِالله بنِ كريز واليه على العراق أن يبعثَ إلى السِّند مَنْ يستطلعُ أمرَها ، تَوْطئةً لإعدادِ العُدةِ لغزوِهَا . .

وعلى الفورِ أرسلَ عبدُالله بنُ عامرٍ إلى السِّند حكيمَ بنَ جبلة العبدى ، وكان رجلاً صادقَ الكلمةِ ، صائبَ الرأىِ . يُحْسِنُ

جمعَ المعلوماتِ عن أىِّ منطقَةٍ يذهبُ إليها . .

مكث حكيم بالسَّند شهراً كاملاً استكشف خلالَهُ أحوالَ أهلِها ، ووقفَ على ماجرياتِ الأمورِ فيها . . ثم عادَ إلى البَصْرةِ وأخبرَ الوالى بما رَأَى وسمعَ ، فأمرهُ بأن يذهبَ إلى الخليفة عثمانِ بن عفان ويُبَلِّغُه بهـذه المعلوماتِ . . ولما وصلَ حكيمُ بنُ جبلة إلى عثمان ، وانتظمَ فى مَجلِسِهِ سألَهُ الخليفة :

– ماذا رأيت ببلاد السِّند ياحكيم ؟

قال حكيم : ياأميرَ المؤمنين . . إن مَاءَها وَشَلٌ[1] ، وتَمرهَا دَقَلٌ[2] ولصَّها بطلٌ . . إن قلَّ الجيشُ فيها ضاعَ ، وإن كثُرَ جاعَ . .

قال له الخليفة : وهل غزاها أحدٌ من قبلُ ؟

رد حكيمٌ : لاَ . . لم يَغْزُهَا أحـدٌ . .

من هذه اللحظةِ قرَّرَ عثمانُ بنُ عفان غزوَ السِّندِ . . وبدأتْ أُولَى المحاولات فى هذه السَّبيلِ بإرسالِ عبدِالله بنِ سوارِ العبدى . . ولكن غزوته لم تحقِّق الهدفَ المنشودَ . .

ثم تتالتْ المحاولاتُ ، وكانتْ أخراها تلك التى أرسلتُ فيها مُجاعة بن سُعْر التيمى ، فلقى حَتْفَه فى مكران قبل أن يَبْلُغَ غايَته . .

سكتَ الحجاجُ هنيهـةَ ثم استأنفَ حديثَه قائلاً :

(١) الوشل : القليل . (٢) الدقل : أردأ التمر .

إننى ذكرتُ لك محاولاتِ مَنْ سبقوك لِتعلمَ أىَّ مهمةٍ شاقَّةٍ أنتَ مقدمٌ عليها ، وأىَّ عملٍ ضخمٍ ستتولاهُ . . إنك ذاهبٌ إلى بلادٍ لَيْسَتْ عصِيَّةً على الفتحِ ، وإنما تتطلبُ جهداً جهيداً لفتحها ، وأنت حَرِىٌّ بأن تبذلَ هذا الجهدَ ، وتحقق ما أخفقَ فيه سابِقوكَ . .

وإننى أرى فيك أُسامةَ جديداً . . فأنت فى مثل سِنِّه ، بل أنت أصغرُ منه بعامين ، وأريدكَ أن تُعيدَ إلى الأذهان بأفعالِك وبُطولاتك ذكرى هذا القائدِ المظَّفرِ الذى قاتلَ الرومَ وانتصرَ عليهم .

إنَّكَ ستكونُ مثالاً لكلِّ شابٍّ يأنُس فى نفسِه القدرةَ على تحملِ عظائِم الأمورِ ، وستكونُ فخرَ بنى ثقيفٍ ، بل فخر شَبابِ هذا الجيلِ . .فسِر على بركة اللهِ ، واللهُ معك . .

* * *

بعد أن فرغَ الحجاجُ من حديثِه وَدّعَهُ ابنُ القاسمِ ، وذهبَ إلى بيتهِ ليستعدَّ للسفرِ فى الصباح . .

وعندما سَطعَ صباحُ اليوم الثانى تحرك الأسطولُ بالمعداتِ والمؤنِ وبعض الكتائبِ ، وفى نفسِ الوقتِ تحركَ ابنُ القاسم بباقِى الجيشِ عبْرَ الصحراءِ ، وكان ذلك فى العام التاسعِ والثمانين بعد الهجرةِ . .

لم يكنْ أحـدٌ من الضباط ينفس(١) على ابن القاسم مكانَته ، لأنَّهم يعلمونَ مدى كفايتهِ العسكريةِ ، ويشهدونَ بأنه من أقدرِ المحاربينَ الذين يخوضونَ المعاركَ ببسالةٍ(٢) نادرةٍ . .

ولكنْ ماذا كان يطوفُ بِخَلَدِ ابنِ القاسمِ وهو ذاهبٌ على رأسِ الجيشِ لمحاربةِ لُصوصِ الديبل ، وفَتْحِ السِّندِ بعد إخضاع هذه المدينةِ المتمردةِ . . ؟ !

إنه اتخذَ من أسامةَ بن زيدٍ مِثالاً لاختيار الشَّبابِ الأكفاءِ لقيادة الجيوشِ . . وقد حقَّق أسامةُ الأهدافَ التى رسمَها له الرسولُ ، ونالَ احترامَ وإعجابَ المسلمينَ فى ذلك الحينِ . . فهل يستطيعُ هُوَ ، وقد سُلِّمَ إليه زِمـامُ القيادة ، أن يُثْبت كفاءته ، ويصبحَ أسامةَ آخر فى نظر المسلمينَ ؟ إن هذا كان ما يختلجُ فى صَدْرِهِ فى أثناءِ الرحيلِ .

ولكنَّ الطريقَ لم يكنْ خالياً من العقباتِ أمامَ الجيشِ العربىِّ حتى يصلَ إلى مدينةِ الديبلِ دونَ حَرْبٍ أوقتالٍ . . فقد كانتْ هناك ثلاثُ مدنٍ لابدَّ أن يَمُرَّ بها الجيشُ قبل أن يصلَ إلى الديبل . . وهى : مكرانُ وقنزبُور وأرمائيلُ . . وكان على ابن القاسمِ أن يستخدمَ القوةَ ضدَّ أىِّ مدينةٍ منها تحاولُ أن تصدَّه أو تعترضَ طريقَه . . إلا أنه حين مرَّ بمدينتى مكران وقنزبور لم يلق منهما إلا الخُضوعَ والاستسلامَ ، أما أرمائيل فإنها حاولَتْ أن تقف

---

(١) ينفس عليه : يحسده .
(٢) بسالة : شجاعة .

فى وجهِ الجيشِ العربىِّ ، وتعوقَ زحفَه ، فما لَبثَ ابنُ القاسم أن هَاجَمها وغَلبها على أمْرِها ، وكانتْ هزيمتُها أولَ انتصار له على أرضِ السِّند . .

لم يتطرقْ الزهوُ إلى قلبِ ابن القاسم ، لانتصارهِ على هذه المدينةِ المتَمردَةِ ، وإنما عَـدَّ هـذا النصر نفحـةً مباركةً من نفحات السَّماءِ ، يختصُّ اللهُ بها المجاهدينَ الأبرار ، لتكون حافزاً لهم على مُواصلةِ الجهـادِ .

* * *

استأنف ابنُ القاسمِ مَسيرتَه إلى مدينة الديبلِ ، وعندما لاحتْ مشارفُها من بعيدٍ ، خفقَ قلبُه فرحًا واستبشاراً . والتفتَ لجنودِهِ ، وملامِحُه الشابةُ تتألقُ بالعزمِ والإصرارِ ، وخطبَهُمْ قائلاً :

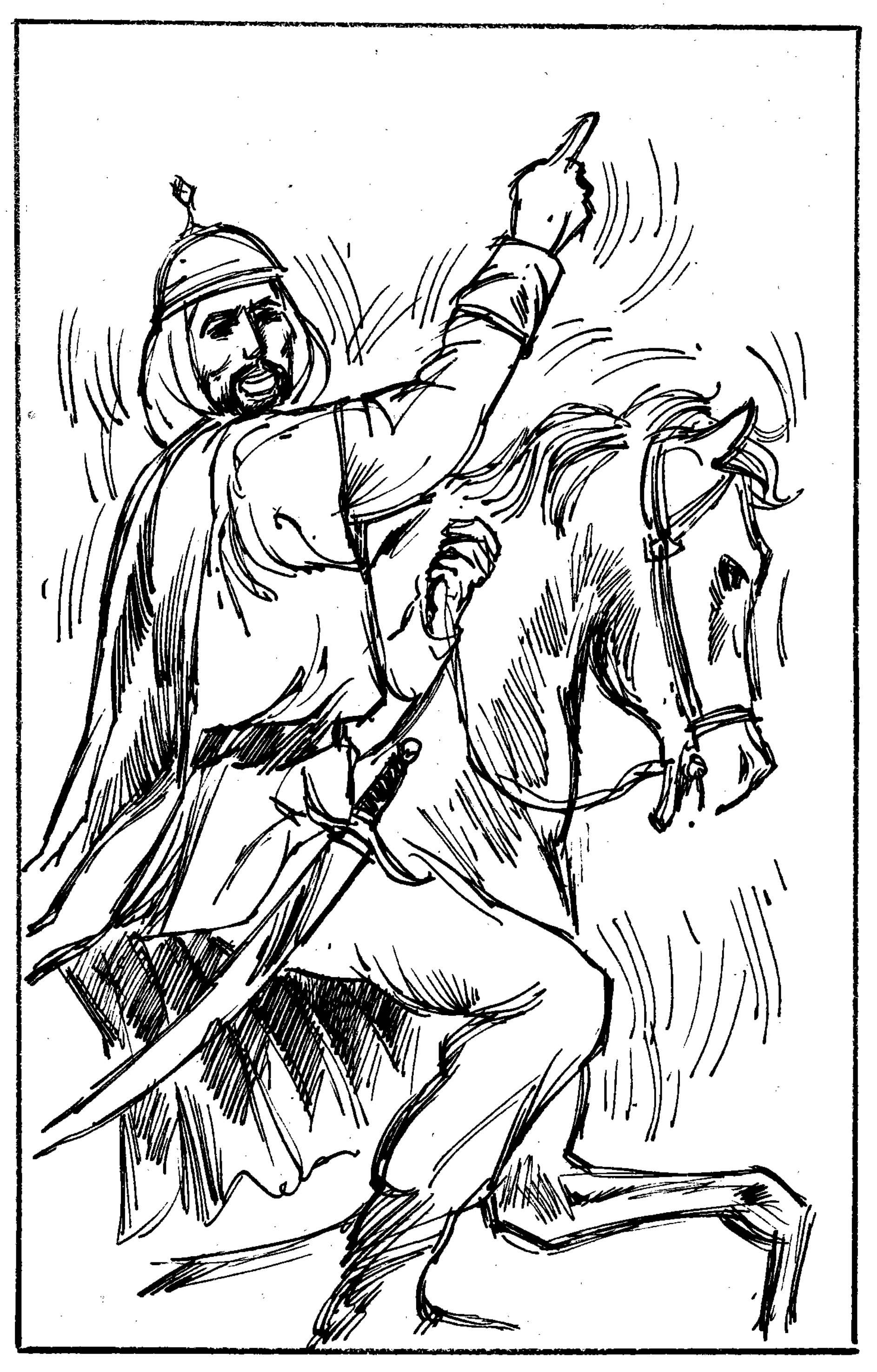
– أيُّها المجاهدون الأبرارُ . . هـذه مدينةُ الدَّيبل على مَرْمَى البصرِ . . المدينةُ التى أَسَرَ فيها القراصنةُ نساءَكمْ ، وما زالتْ استغاثَتُهُـنَّ تملأ سمعَ الزمنِ . . تقدَّموا لمعركةٍ لا يخرجُ منها القراصنةُ إلا قَتْلَى تحتَ سنابكِ الخيلِ . . أو جَرْحَى يلتمسونَ منكم العفوَ والصَّفْحَ . .

ثم خندقَ بالجيشِ استعدادًا للهجومِ . .

وقبل أن تتحرَّكَ الخيلُ براكبيها جنحَ(١) ابنُ القاسم نحوَ

---

(١) جنح : مال .



أيها المجـاهدون الأبرار . .

الأسطولِ الراسى على مقرُبَةٍ منه ، وأمَر خُمسمائة رجلٍ بأن يَنْصُبوا المنجنيقَ ليلاً بالقرب من قاعدة الصَّنم الكبير ، حتى يكونَ قذفُه بالحجارةِ محكماً !

تم تثبيتُ المنجنيقِ ، حيثُ أمـرَ ابنُ القاسمِ ، وَوُضِـعَ فيها حجرٌ ضخمٌ ، ثم صَدَرتْ الإشارةُ بإلقاءِ الحجرِ على الصَّنمِ . . وكان الرِّجالُ الخمسمائة على أُهبة الاستعدادِ ، فحرَّكوا المنجنيقَ ، فإذا بالحَجَرِ يرتفع عالياً ، ثم يهبطُ كالصَّاعقة فوق رأس الصَّنمِ فيحطِّمُه عن آخرِه ، ويصدِّع قاعدته . . وقبل أن تَمْضِى ثوانٍ كان الغُبَارُ قد ملأ السراديبَ ، وخرجَ الكَهنةُ مذعورينَ ، كما خرج أهلُ المدينةِ مَشْدُوهينَ(١) يستطلعونَ الأمرَ . . وما إن وقعتْ أعيُنهم على الصنمِ المحطَّمِ ، وقاعدتِه المتصدَّعة ، حتى داخَلَهـمُ التشاؤمُ ، وأَيْقَنوا أن كارثةً محققةً ستنزلُ بالمدينةِ . .

إنَّهم شاهَدوا بأعينِهم الصَّنمَ الذى يتبركون به قد زالَ فى لحظةٍ واحدةٍ ، وشاهدوا المسلمين يُحاصِرُونَهم من البرِّ والبحرِ ، وسَمِعُوا أصواتَ التكبيرِ تَشُقُّ سَمْعَ الأثيرِ ، فأدركوا أن لا مفرَّ من نُشوبِ الحربِ . . إذْ أنَّ الانتقامَ للصَّنمِ المحطَّمِ واجبٌ مقدسٌ عليهمْ . .

رجعَ كلٌّ منهم إلى بيتِهِ ، ولَبِسَ عُدَّةَ القتالِ ، ثم اجتمعوا فى السَّاحَـةِ الكُبرى بالمدينةِ ، وتشاورُوا فى أمـر الحربِ .

---

(٢) مشدوهين : مدهوشين .

كانَ الرأىُ الذى انتَهوْا إليه بعدَ مُشاوراتِهِمْ أنْ يعتصمُوا بالمدينةِ ، ولا يخرجُوا لقتالِ المسلمين ، حتى يكونُوا أقدرَ على قتالِهِمْ داخلَ المدينةِ .

كان شيوخُ المدينةِ يُحَمِّسون المقاتلين ، ويذكِّرونهم بأحداثِ المعركتَينِ السابقتين ، ويُمَنُّونَهُمْ بالنصرِ . أما النساء فيغنين أغانىَ الحربَ . .

وفى خارج المدينةِ كانَ ابنُ القاسم ورجالُه ينتظرون بلهفةٍ بَدْءَ القتالِ . كانتْ الساعاتُ تَـمُرُّ ثقيلةً . . بطيئةً . . المسلمونَ يتعجَّلونَ خُروجَ القراصنةِ ، لتبدأ الحربُ ، والقراصنةُ مشدوهون . . مذهُولونَ ، لِهَـوْل ما جرى للصَّنَمِ . .

ولما طَالَ الوقتُ مَلَّ المسلمونَ الانتظارَ ، فهجمُوا على المدينةِ محاولينَ اقتحامَها ، ولكنَّهم وَجَدُوا بابَها الضَّخْمَ قد أُحكِمَ إغلاقُه . . ولا سبيلَ لفتحهِ إلا بصعودِ رجلٍ إلى أعلى قاعدةِ الصَّنم ، وتحطيمِ المغَاليقِ المثبتة فى البابِ من الخَلْفِ . .

المهمةَ شاقةٌ للغَايةِ ، ولكنَّ المجاهدين لا يَعْترفون بالمشاقِّ . .

عرض ابنُ القاسمِ على رجالِه فكرةَ الصُّعودِ إلى أعلِى قاعدةِ الصَّنم ، وكانت عمليةً انتحاريةً تتطلبُ فدائياً جريئاً يُؤثِرُ الموتَ على الحياةِ . .

فى هـذه اللحظة ومضت (١) فى أذهان المسلمين صورةُ فتحِ

---

(١) ومضت : برقت ولمعت .

حصنِ بابليون فى الفسطاطِ أيامَ الفَتْح الإسلامىِّ على يَدِ عمرو بن العاص ، فقد استطاع الزبيربن العوام أن يتسلَّقَ السُّلَّم ، ويفتَح الحصنَ عُنوةً واقتداراً .

ما إن عرضَ ابنُ القاسم هـذه الفكرةَ حتى تقدم إليه عددٌ كبيرٌ من الجنود ، اختار من بينهم رجلاً من الكوفةِ من قبيلة مُرادِ . . توسَّم (١) فيه الجرأةَ وحبَّ المغامرةِ .

صَعِدَ الرجلُ على سُلَّمٍ طويلٍ حتى بَلَغَ أَعْلَى القاعدةِ . ثم فَتَح البابَ بالقوةِ ، وأَنْجَـزَ مهمَّتَه بنجاحٍ .

ما كادَ البابُ يُفْتَحُ حتى اقتَحَمَ المسلمونَ المدينَةَ ، ودارتْ رَحى الحربِ فى الشوارع والميادين ، وكان القراصنة يقاتلونَ باستماتةٍ ، والكهانُ يَبُثون فيهم الشجاعةُ ، والنساءُ يَبْعَثْنَ فيهم الجرأةَ ، ولكنَّ كلَّ ذلك لم يُجْـدِ فَتِيلاً ، فقد كان القتالُ أشدَّ من طَاقَتِهِمْ ، وأكبرَ من قُدرَتِهِمْ ، وأعظَمَ من كلِّ ما لديْهِمْ من بسالةٍ واسْتعدادٍ ! !

* * *

استمرَّ القتالُ ثلاثةَ أيامٍ فى كل أنحاءِ المدينةِ ، حتى أصبحَ عددُ ضحايَا القراصنةِ يُعَدُّ بالآلافِ ، وكأنهم أُغرقوا فى بَحْرٍ من المنايَا ، وأخيراً لم يَجِدُوا بُدًّا (٢) من التَّسْليمِ ، وجباهُهُمْ مطأطِئة من الخزى والعـارِ ، وكان ذلكَ فى سنة تسع وثمانين هجرية .

* * *

(١) توسم : تفرس .   (٢) بدا : مفراً .

كان أولُ شيءٍ فَعَله ابن القاسم بعدَ هزيمةِ القراصنةِ ، أن أطلقَ سراحَ النساءِ المسلماتِ ، وخصَّصَ سفينةً من سُفُنِ الأسطولِ لِنَقْلهنَّ إلى العراقِ . .

ثم بعثَ برسالةٍ إلى الحجَّاجِ يشرحُ له فيها تفاصيل المعركَةِ ، وكيف انتصَرَ على أَهْلِ الدَّيبلِ ، وطلبَ منه الإذنَ بمواصلةِ فتح باقى مُدن السِّند ، ولَبِثَ بالمدينةِ ينتظرُ الردَّ . .

* * *

فيمَ كان ابنُ القاسِمِ يفكِّرُ ، وهو يُمَضِّى فترةَ الانتظارِ بمدينةِ الدَّيبلِ ؟

ماذا كانَ يدورُ بخَلَدِ القائدِ الشَّابِّ بعد أن ثَأَرَ لابنِ نبهان وبديل ومن اسْتُشْهِدَ معهُما فى المعركتينِ السابقتينِ ؟

إنه راحَ يجمعُ معلوماتٍ عن أحوالِ السِّندِ : كيفَ يعيشُ أهلُها ، وعلى أىِّ أساسٍ تقومُ علاقةُ الملكِ بهمْ ؟ وما مدَى احتمالِهِمْ لمقاومةِ الغزاةِ والفاتحين ؟ وَمِنْ هـذه المعلوماتِ أخذَ ينسِجُ خيوطَ خُطِته العسكريّةِ القادمةِ .

ثم أمَرَ ببناءِ مسجدٍ فى مدينةِ الديبل ، وكان أولَ مَسْجِدٍ يُقام فى السِّندِ .

بدأَ المسلمونَ يُزاولونَ شَعائرهم الدينية ، مما حبّبَ إلى كثيرٍ من

أَهْـلِ الدّيْبَلِ بعد أن سَمِعوا القرآنَ وشَهِدُوا هـذه الشعائرَ ، أن يَدخلُوا فى دين اللهِ أَفواجاً . وكدأبِ(١) المسلمينَ فى كلِّ فتوحاتِهِمْ ، راحَ الفقهاءُ يُعلمونَ أهلَ الديبل مبادىءَ الإسلامِ وتعاليم السماء . .

(١) دأب : عادة .

السّند قبلَ الأندلُس

لَمْ يَطربْ الحجاجُ لنبأٍ مثْلَ طَربهِ لنبإِ انْتِصارِ محمدِبنِ القاسم على مدينةِ الديبلِ . وعمَّت العراقَ فرحةٌ غامرةٌ ، وبخاصةٍ مدينةَ واسطٍ التى يَقْطنها القائدُ الشابُّ ، وَظَلَّ قصرُ الإمارةِ ببغدادَ يَفِدُ إليه المهنئون من كلِّ حَدَبٍ وصوبٍ(١) أسبوعاً على التّوالى . . وبينما الحجاجُ يستقبل المهنئين إذا بقادمٍ من دمشق يَطْلب منه أن يَجتمعَ به على انفرادٍ .

علِم الحجاجُ خلالَ اجتماعه بهـذا الرجلِ أن موسى بنَ نُصير استأذن الخليفةَ فى فتح الأندلسِ ، وأن الخليفةَ أَذن له بذلك . وهُنا عَـزّ على الحجاج ، وهو من أبرزِ حكام البلاطِ الأموى ، أن يفتح موسى الأندلسَ ، ويَضمّها إلى الدولةِ الإسلامية ، فى حين أنه رابضٌ بالعراقِ ، لا تمتدُّ آفاقُ سلطانهِ ، ولا تتسعُ حدُودُ إمـارتهِ .

استدعى الحجاجُ أهلَ الرأىِ ، وعَرَضَ عليهم فكرةَ فتحِ السندِ كلِّها ، قبل أن يفتح موسى الأندلسَ ، حتى يسيرَ الفتحان فى خَطَّين مُتوازيين . وافقوا جميعاً على هذه الفكرةِ ، وأيَّدوا وِجْهـةَ نظرِه ، وطلبوا منه أن يُبـادرَ بإرسالِ الإمداداتِ العسكريةِ

(١) من كل حدب وصوب : أى من كل ناحية .

إلى ابن القاسمِ ، حتى يواصلَ فتُوحه فى السند ؛ ويُحقق هـذه الأمنيةَ الغاليةَ .

وفيما كان ابنُ القاسم بالدَّيبل ينتظرُ تعليماتِ الحجاج ، وكانتْ المعلوماتُ التى حَصَلَ عليها قد أعطَتْهُ صورةً واضحةً عن أحوال السِّندِ ، إذا بالإمداداتِ تَصل إليه ، ومعها تعليماتٌ من الحجاجِ أن يُبْقى أربعةَ آلاف مُقاتلٍ فى الديبلِ ، ويَمْضِى بباقى الجيشِ لفتح السندِ كلِّها . .

لم يكن ابنُ القاسم يَعْلَم – بالطبع – أن الحجاجَ دخل فى سباقٍ مع موسى بنِ نصيرٍ فى مجالِ الفتُوحات ، وأن بعضَ قطعِ الأسطولِ العربىِّ ستتجهُ إلى ميناءِ سبتَه لِنَقْل المجاهدين إلى الأندلسِ بقيادةِ طارقِ بن زيـاد . .

وإذ صدرتْ التعليماتُ لابن القاسمِ بِمواصلةِ الفتحِ ، نـادَى فى رجالهِ بالتَّحركِ ، بعد أن أبقَى أربعةَ آلافٍ منهم بمدينةِ الديبلِ . .

كانت « البيرون » أولَ مدينةٍ وَصَلَ إليها الجيشُ العربىُّ ، وكان بينها وبينَ الحجاجِ عَهدٌ وميثاقٌ ، لذلك لم يَجِـدْ ابن القاسمِ مَشَـقَّةً فى دخولِها . بل بالعكسِ ، رَحَّب بـه أهلُها وأحْسنوا استقبالَه ، ودَفَعوا إليه الجزيةَ المفروضةَ عليهم . .

أقامَ الجيشُ العربىُّ بهـذه المدينةِ أياماً تَزَوَّدَ خلالهَا بما يَلْـزَمُـه من المُـؤَنِ ، ثم استأنفَ السيرَ لِيُنْجِـزَ مهمتَه (١) . .

(١) أنجز مهمته : أداها بنجاح .

وكان كُلَّما مَرَّ بمدينةٍ أعْلَنَتْ له الخضوعَ والطاعةَ ، إلا مَدينة واحدة اسمُها سَهبانُ ، فقد أَبتْ إلا أن تُقاوِمَ الجيْشَ العربيَّ ، وَتَقِفَ زَحْفَه ، وتَصُدَّه عن غايتِه .

خرج أهلُ هذه المدينةِ على ظهورِ الأفيالِ مُتَقَلِّدِين عُدَّةَ الحرب ، ورءوسُهم مُزَيَّنَةٌ بالريشِ ، واشتبكوا مع ابنِ القاسمِ وجنده فى معركة مريرةٍ ، ولكنهم سرعان ما تَيقنوا أنَّ المعركةَ تَسِيرُ فى صالحِ المسلمينَ ، وأن عددَ ضحاياهم يَرْتفعُ كلَّ لَحْظَةٍ ، وأنَّهم لو واصَلُوا القِتَالَ لَبَادُوا عن آخرِهِم . . ومن ثَمَّ رَفَعوا رايةَ التسليمِ ، وطَلبوا وقْفَ القِتالِ .

أجابَهم ابنُ القاسمِ إلى هذا الطلبِ ، شريطةَ أن يَدْفَعوا الجِزيةَ التى يَفْرضُها عليهم ، وأن يُسَلِّمُوا له ما لَدَيْهم من أسلحةٍ وعَتادٍ ! !

وإذ كان ابنُ القاسمِ يُحَدِّدُ لأميرِ المدينةِ قِيمةَ الجِزيةِ ، كان أحدُ جنودِه قد أخذ رسالةً منه ، وانطلقَ بها إلى الحجاجِ ليبَلِّغَهُ بآخرِ الانتصاراتِ . . وكان ابنُ القاسِمِ يبعثُ كلَّ ثلاثةِ أيامٍ برسالةٍ إلى الحجَّاجِ يُعْلِمه فيها بموقفِ الجيشِ ، وكان الحجَّاجُ – بِدَوْرِه – يبلغ الخليفةَ فى دِمَشْق بكلِّ خطوة يَخْطوها الجيشُ العربىُّ فى السندِ . .

وبالرغم من أن عَدَدًا كبيراً من مُدنِ السند قد سَقطَ فى أيدى المسلمين ، فإن الملكَ ذاهر كان فى شُغْلٍ شاغلٍ عَمَّا يَجْرِى فى

بلادِه . . كان مشغوفاً بمخالطةِ الحِسان ، وإقامةِ الليالى الراقصةِ . . وفيما هو وراءَ نهرِ مهران يَعيشُ حياتَه الصاخبةَ ، جاءته الأنباءُ بأن الجيشَ العربى فى طريقه إليه .

عَقَد الملكُ ذاهر اجتماعاً عاجلاً لمجلسِ الوزراءِ ، حَضَره قائدُ الجيشِ وكبارُ الضباطِ ، وبعد مشاوراتٍ استمرتْ بِضْعَ ساعاتٍ ، استقر الرأىُ على مُواجَهةِ الجيشِ العربىِّ ، وإجلائهِ عن مدنِ السند التى اسْتَوْلَى عليها . .

رَغِبَ الملكُ ذاهر فى حضورِ المعركةِ ، فأَعدُّوا له فيلاً عظيماً ، وخَصَّصُوا فِرْقَةً كاملةً من حَمَلَةِ السهامِ للإحاطَةِ بفيلِ الملكِ ، حتى لا يَجْرُؤَ أحَدٌ على الاقترابِ منه . .

كما رغبتْ « سيتا » بنتُ الملكِ فى حضورِ المعركةِ ، حتى يكونَ وُجودُها حافِزاً للجنودِ على الاستماتَةِ فى القتالِ ، وعدمِ الفَرارِ . وأُجيبتْ « سيتا » إلى طلبِها ، فأُعِدَّ لها هَوْدجٌ من الحريرِ على ظهرِ فيلٍ ، ومجموعةٌ من الجنودِ لحراسةِ الهودجِ .

كان كلُّ شيءٍ وراءَ نَهر مهران يُوحِى بأنَّ المعركةَ ستكون حامية الوطيسِ (١) ، وستدور الدائرةُ فِيها على المسلمين ! !

الجيش السِندى فى كاملِ أُهْبَتهِ (٢) . .

والملِكُ وبنْتُه يشتركان فى المعركةِ . .

والجَبلُ الذى سيدورُ فيه القتالُ لا يَعْلم العربُ عَنه شَيئا ! !

---

(١) حامية الوطيس : مشتعلة . (٢) أهبة الحرب : عدتها .

وكانت عُيونُ(١) ابن القاسمِ تُبَلِّغه باستعداداتِ الملكِ أولاً بأولِ ، فيضَعُ خطَّتَه على أساسٍ من الواقعِ . . وقد بَدَأَ هجومَه على جيشِ السِّنْدِ وفْقًا لخطةٍ دقيقةٍ .

دارت المعركةُ بين الجيشين العربيِّ والسِّندِيِّ كأعنف ما تكون المعاركُ . . وفى الوقتِ الذى كانَ فيه ابنُ القاسمِ يَصُولُ ويَجُولُ ، ويَخْطَفُ بِسَيْفِه الأرواحَ ، كان ملكُ السِّندِ يَحْتَمِى بالفرقةِ المُخَصَّصَةِ لحراسَتِه ، ويُحاولُ أن يُوَلِّىَ الأَدبارَ . .

وقد استماتتْ هـذه الفرقةُ فى الدفاعِ عن الملكِ ، ولكنَّها عَجَزَتْ عن أَنْ تُقَاوِمَ القاسمَ بنَ ثَعْلَبَةَ ، وهو يَشُقُّ الصُّفوفَ نحو الملكِ ويقتُلُه بسيفهِ . . كما عجَزَ جيش السندِ عنْ أن يُواصلَ القتالَ بعد مصْرعِ الملكِ . . فنَكَص مَذْعُورًا ، ولاذَ بالفرَارِ .

ولما شَهِدَتْ بنْتُ الملِكِ مَصْرَعَ أبيها حاولَتْ أن تَرُدَّ الفُلولَ الهاربَةَ ، ولكنهم أَصَمُّوا آذانَهم عن نِدائِها . . وأرادَ أحدُ الجنودِ العَربِ أنْ يأسِرَ هذه الأميرةَ التى تُحَرِّضُ على قِتَالِ المسلمين ، فمنَعَهُ ابنُ القاسمِ ، وأرسلَها فى حراسةِ الجُنْدِ إلى قَصرِ أبيها !

كانتْ « سِيتا » فى الثامنةَ عشرةَ من عمرِها ، فتاةً بَضَّةً ناعِمَـةً مَمشُوقَةَ القَوَامِ ، جَمَعتْ أنوثَتُها بين نَضَارةِ الربيعِ ، وصَفاءِ الجدْولِ الرَّقْرَاقِ ، وشَفَافِيةِ الضُّحَا . . وكانتْ إذا ظَهَرَتْ فى المواكبِ الملكيةِ التى تُقَامُ فى أثناءِ الأعيادِ والمناسباتِ ،

---

(١) العيون : رجال المخابرات .

تَأسِرُ بحُسْنِها الألبابَ والقلوبَ . . ولطالما هَفَتْ إليها قلوبُ أمراءِ السِّندِ ، ولكنَّ قَلْبَها ظَلَّ بِكْرًا لم يرتَشِفْ قَطْرةً واحِدَةً من الحُبِّ .

بماذا أحَسَّتْ الفتاةُ عندما أَحْسَنَ إليها القائِدُ المسلمُ وأَرْسَلَها إلى قصرِ أبيها فى مدينةِ راور ، وكان من المفروضِ أن يَسلكَها فى عِدَادِ الأسيراتِ . . إن الشَّهامةَ العربيةَ هى التى أَمْلَتْ عليه هـذَا الصَّنيعَ بلا شَك . . ولكن « سيتا » أحَسَّتْ أن قَلْبَها تَعَلَّقَ بالشابِّ ، وخَفقَ بحُبِّه بين ضُلوعِها . .

وسأَلَتْ نَفْسهَا : هل من المُمْكنِ أن أُحِبَّ قاتِلَ أَبِى ؟ هل أَقْفَرَتْ السِّندُ من الشبابِ ، ولم يبقَ إلا هـذا الشابُّ العربىّ الذى احْتَلَّ بِلادِى ، وقَضَى على أَبى ، وأزال سُلطانَه ؟ إن عَقْلِى يقول : لا ، وقَلبى يقول : نعم . . لمـاذا أَفْقُـدُ السَّيْطَرَةَ على قلبى وإرادتى ، فى الوقتِ الذى فَقَدْتُ فيهِ كلَّ عزٍّ وجاهٍ وسلطانٍ . . ؟ ! لماذا يَخْتَزِنُ قلبى عواطِفَه ، ولا يُطْلِقُها إلا فى هـذَا الوقتِ العَصيبِ ؟ فى هـذه اللحظاتِ الحـرجةِ ؟ أىُّ مِحْـنَةٍ ابْتَـلانى بها القَدرُ ، فأصابَنِى بِحُبِّ مَنْ يَسْتَحِقُّ كَراهِيَتِى وبُغْضِى ، ويَسْتأْهِلُ حِقْدِى وأضْغانى ! ! يا لَغَضَبِ السماءِ ! ! ويا لقَسْوَةِ الزَّمنِ !

وأرادتْ الفتاةُ أنْ تَهْرُبَ من الصِّرَاعِ النَّاشِبِ بينَ عقْلِها وقَلْبِها ، بين مَنْطِقِها ووجْدانُها ، فَذهَبَتْ إلى مَخْدَعِها وحاوَلَتْ

أنْ تَنامَ ، ولكن النَّومَ لم يَقْرُبْ عَيْنَيها . لأنَّ دوّامـةَ الخَواطِرِ المُتَصَارِعَةِ فى صَدْرِها ، كانتْ أقْوَى من كلِّ مُحَاولَةٍ لِلنُّعاسِ .

ظلَّتْ ساهدةً مؤرقةً حتى هبَّتْ نسْماتُ السَّحرِ ! !

وقُبيل الفجرِ أخذتْها سِنَةٌ من النَّومِ ، فرأتْ حلماً مفزِّعاً . . رأتْ والدهَا مُقَطَّبَ الوجهِ ، عابسَ الجبينِ ، يَحُضُّها على الأخذِ بالثأرِ ، ويعاتبُها فى حدَّةٍ وعنفٍ على أنَّها أحبَّتْ مَنْ قَتَلَهُ ولَوَّث يَدَيْهِ بِدمائِهِ .

كانتْ كلماتُه من القَسْوة ، بحيثُ إنها أَحَسَّتْ بمثلِ لَذْعِ النَّارِ فى جسَدِها ، فانتفضتْ من الخوفِ ، وصَحَتْ مَذْعورةً يتصبّبُ العَرقُ الباردُ منها ، وظَلَّ شبَحُ أبيها يَتمثَّلُ لها فى اليَقْظَةِ ، حتى غادَرتْ الغُرْفةَ ، وهى شِبْهُ هائمةٍ لا تَدْرِى ماذا تَفْعَلُ ، ولا أينَ تذهَبُ ! !

أما ابنُ القاسمِ ، الشابُّ الذى وُلِدَ لِلْجهادِ ، وعاشَ فى ساحاتِه ، بينَ الطَّعْنِ والضَّرْبِ ، فقد أحَسَّ بِمَيْلٍ نحوَ الفتاةِ . . وحاولَ بِدَوْره أن يُقَاوِمَ هـذا المَيْلَ ، ودارَتْ فى رَأسِهِ نَفْسُ الخَواطِرِ المُتَصارِعَةِ المُتَضَارِبَةِ . ولكنَّهُ وَجَـدَ نَفْسَـهُ فى نِهـايَةِ الأَمْـرِ مُسْتَسْلِمًا لِمَشَاعِرِهِ لا يَسْتَطِيعُ الإفُلاَتَ مِنها . .

حبُ وخـــداع

أَىُّ خطةٍ دَبَّرها القَدرُ لِلْقائدِ الشابِّ ؟ . إنه بِرغم قوةِ بأسهِ (١) فى ميادينِ القتالِ وَجَدَ نَفسَه فَجأةً خاضعاً لأَسلحةِ الحُبِّ والجمالِ . . ومِن أَجلِ أن يُحْكِمَ القَدرُ خطَّتَه ، جعَل الفتاةَ تَتَدلَّه بالقائدِ الشابِ ، وتَرى فيه كلَّ ما تَتَمناهُ فى حبيبِ المُستقبلِ . .

إلا أنَّ هناكَ سِتارًا كثيفاً يَحُولُ بين لِقَاءِ القَلْبَيْنِ المتحابَّين . . هـذا السِّتارُ صَنَعتْه الحربُ بأهْوالِها . . بمآسِيها . بما خَلَّفَتْه من ضَحـايا ودَمـارٍ . .

وَمع هـذا فإن الفتاةَ تُحاولُ أن تَتَجاهلَ ما حدثَ ، وتَتَناسَى ما وقَع . . وَتُلْقِى بِمفْتاح قَلْبها فى يَدَىْ حَبيبِها ، ولكن ما إنْ تَقْفِزْ إلى مُخَيِّلَتِها مَناظِرُ الدماءِ ، ومَصْرعُ أبيها بِيَدٍ عربيَّة ، وزوالُ عرشِهِ وسُلطانِه . . على يَدَىْ ابنِ القاسِمِ وجيشِه ، والحُلْمُ المفْزعُ الذى رأتْه ، حتى تَنْطوِىَ على نفسِها ، وتُسامرَ وَحْدتِها بذَرْفِ الدموعِ .

وإذا كانَتْ الفتاةُ تُعانِى مِن هـذا الحبِّ الْمُفَاجِىءِ ، فإن ابنَ القاسِمِ كانَ يُعانِى مِثْلَها وأَشَـدَّ مِنها ، بل إن مركزَه كقائدٍ عسكرىٍّ كان يُحتِّم عليه أَنْ يَدُوسَ عَواطِفَه ، حتى يَنْتهِىَ من

(١) قوة بأسه : أى شدته فى الحرب .

فُتوحاتِه . . ولَكنَّه لم يَسْتطعْ . . لم يَكُن بِمَقْدُورِهِ أن يَتصامَمَ عَن نِدَاءِ قَلْبِه ، وهَمْسِ مَشاعِرِه . . ولكنَّ عقلَه كانَ يُذَكِّره دائماً بواجبِه نحوَ وطنه ودينِه . . فيَظَلُّ فى صِراعٍ بينَ الحبِّ والواجِبِ ! !

* * *

جلسَ ابنُ القاسمِ يومًا مُنْفرِداً يُسائِلُ نفسَه : هَلْ هـذا الحُبُّ تَجْرِبَةٌ أرادَ اللهُ أن يَمْتَحِنَ بها إيمانِى وَعقيدتِى ؟ هل الفَتاةُ صادقةٌ فى حُبِّها لِى ؟ وإِذا كانَتْ كَذَلكَ ، فهل أُضيع جَلاَلَ انْتِصاراتِى بِسبَبِ فَتاةٍ ؟ ماذا يَقولُ الخليفةُ أو يقولُ الحجاجُ إذا عَلمَا أن قائد الجيشِ فى السّندِ قد أصبحَ عاشِقًا مُولَّهاً فى حُبِّ ابنةِ المَلكِ ، بل ما يَقولُ جنودِى الذين يُحِيطونَنى بِهالاَتِ الإِكْبارِ إذا عَلِمُوا بِهـذَا الحبِّ ! !

ثم سكتَ لَحْظَةً وأدْرَكُه الضَّعْفُ الإنْسانِى فسالَتْ الدُّموعُ مِن عَيْنَيْهِ ، ولأَولِ مرةٍ يُحِسُّ طعْمَ الدُّموعِ ، كما أَحَسَّ قبلَها لَوْعَةَ الحبِّ ! !

أما الأميرةُ العاشِقَةُ فلم تَسْتطعْ أن تُخْفِى هَواها برغمِ كلِّ الظروفِ التى تَعيشُها . وكيف تُخْفِيهِ وهو كالشُّعْلَةِ بين جوانِحِها ، لا يَفْتأُ يُصْلِيها كلَّ لَحْظةٍ بِلَهَبِه وسُعَارِهِ . .

وبالطبعِ شاعَ أمرُ هـذا الحبِّ ، فكانَ فُرْصَةً لِلأُمراءِ المَعْزُولينَ أن يَتَّخِذُوا منه مَعْبَراً إلى أَطْمَاعِهِمْ ومآرِبِهم . .

كانوا مَنكَّسى الرُّؤوسِ بعدَ مَصْرَعِ المَلِكِ وانتهاءِ عَهْدِه ، وما إنْ عَلِمُوا أنَّ هناكَ خَيْطاً من الأشواقِ يَرْبط بين قلْبِ الأميرةِ وقلبِ القائدِ المسلمِ حتى تَسَلَّلُوا إليها تَحتَ جُنْحِ الظَّلامِ ، وكان بُرفْقَتِهم أخُوها « جيشبة » لأنَّهم وَعَدوهُ بِتنْصيبه مَلِكًا علَى السندِ ، متَى نَجحَتْ مؤامَرَتُهم ، وتَخَلَّصُوا من القائد المسلمِ . .

جلسَ هؤلاءِ الأمراءُ المَعْزولون إلَى الأميرةِ « سيتا » يُناشِدُونَها أنْ تَلْعَبَ دَوْرًا فى استِرْدادِ العرْشِ ، وإجْلاءِ المُسلمين من السندِ ، وعَرضُوا عليها فِكرة تَنْصِيبِ أخِيهَا مَلِكًا علَى البلادِ . .

أطْرَقتْ الأميرةُ برأسِها إلى الأرضِ ، تُفكِّرُ فيما عَسَى أَنْ تُجيب بِه . .

إنَّها أمامَ أحدِ أمْرَيْنِ :

إما أنْ تَدْخُلَ هذه المُغامرةَ . وتَرْبطَ مُسْتَقْبلَهَا بِعَرْش السندِ .

وإمّا أن تَرْفُضَ طَلَبَهُم ، وتُبْقى على حُبِّها للقائدِ الشَّابِّ ! !

ولكن قَفَز إلى مُخيلتها الحلمُ الذى رأته بالأمسِ ، وتذكَّرتْ الكلماتِ التى سَمِعَتها من أَبيها وهو يَحُضُّها على الأَخذِ بالثأرِ . .

عند ذلك قَبِلَتْ أن تَلْعبَ هذا الدَّورَ . .

سألتْ أخاهَا : ما هو المطلوبُ منّى بالضَّبطِ . . ؟

أجابَها : أن تُمثِّلِى للقائِد المسلِم دَوْرَ العاشِقَةِ . ثم تَدْعيهِ لِحضورِ وَليمةٍ فى القَصرِ . . وسيَحْضُرُ بالطَّبعِ ، ومعهُ كِبارُ الضُّباطِ

العربِ ، لأنه قَائدٌ حَذِرٌ. وسنكمنُ لَه فى الغُرفِ المُحِيطَةِ بالرَّدْهةِ . . حتى إذا ما اطمأنَّ مَجْلِسُه ، نُفَاجِئهُ بِسيُوفِنا ، ونأخذُ منه بالثأرِ.

وافَقَتْ الأميرةُ « سيتا » على هذه الفكرةِ . . ولكنها باتَتْ فى قلقٍ وحَيْرَةٍ واضطرابٍ.

ماذا يكونُ مَصيرُها إذا فَشَلَتْ هـذه الخطّةُ وانكشَفَ أمرُها . .

لماذا تعَرِّضُ نفسها لِموقفٍ لا تُؤْمَنُ مَغَبَّتُهُ(١)

بم تَبْدَأُ الحديثَ مع القائد الشابِّ ؟ وماذا تفْعَلُ إذا ارتابَ(٢) فى أَمْرِها ؟ بل ماذا تَفْعَلُ إذا عَرَضَ عليها الزواجَ : أتَرْفُضُ ؟ أم تَقْبَلُ ؟ . . إذا رفَضَتْ فلَن تكونَ بِمَنْجَاةٍ من غَضَبِه . . وإذا قَبِلَتْ فلن تَأْمَنَ جانِبَ أَخِيها والأمراءِ السابقِين . . الطريقُ على كلِّ حالٍ شائكٌ ومَحفُوفٌ بالمخاوفِ ! ! المطلوبُ منها أن تُمثلَ دَوْرَ العاشقةِ ، وهى فِعْلاً عاشقةٌ ؟ أن تَرْسمَ مُستقبلَ دولةٍ ، وهى عاجزةٌ عن رَسْمِ مُستقبلِ نفسِها . . لتذهب إلى القائدِ المُسلمِ فى الصباحِ . ولْيَكنْ ما يكونُ ! !

وفى صَحْوَةِ اليومِ التَّالى ذَهَبتْ إلى مَقَرِّ القيادةِ العسكريةِ ، وطَلَبَتْ مُقابلةَ القائدِ. كان ابنُ القاسمِ فى انتظارِها ، لأنَّه عَلِمَ بمجيئها من عُيونه فى القصرِ . . تَوَقَّعَتْ أن يَكونَ اللقاءُ الأَولُ بينَهما

---

(١) المغبة : العاقبة . (٢) ارتاب : شك .

حافِلاَ بالمناجاةِ وأحاديثِ الغرامِ . . ولكنَّها وجَدَتْ القائدَ المسلمَ يتلقّاها بوجهٍ صارمٍ ، كأنَّه قاضٍ على مِنصَّةِ القَضَاءِ . . بدَأَ ابنُ القاسمِ الحديثَ بِقَوله :

– مَرْحبًا بكِ أيتها الأميرةُ . . لَعلّكِ بخيرٍ .

رَدَّتْ عَليهِ :

– إنَّنِي بِخَيْرٍ ما دمتَ راضِيًا عَنِّي . .

قال ابنُ القاسم :

– المُهِمُّ أنْ تكوني بِخَيْر . . ماذا تَطْلُبين ؟

أجابَتْهُ في حَنانٍ مُصطَنَعٍ :

– أَنْ نُزِيلَ ما بيننا من جَفْوَةٍ !

قال ابنُ القاسم :

– ماذا تقصدين بالضبط ؟

قالَتْ :

– هل لَدَيْكَ مانعٌ أن تُشَرِّفَنَا بالزيارَةِ ، وبَعدَها نَتفَاهمُ علَى كلِّ شيءٍ . .

قال ابنُ القاسم :

نَتفاهمُ على ماذَا أيّتُها الأميرةُ ؟

قالَتْ :

– على ما نُعِدُّهُ لِلْمُستقبلِ .

قال ابنُ القاسم :

– أىّ مُستقبلٍ ؟ . . مُستقبِلى . . أم مُستَقْبلُك . . أم مُستَقبلُ السندِ ؟

قالتْ :

– مُستقبِلى أنا وأنتَ ! !

قال ابنُ القاسِم :

– هل هُناكَ ما يَرْبطُ بيننا حتى نُفكِّرَ فى المستقبلِ ؟ قالتْ :

– نعم . . هناك العَرشُ . . والحبُّ . . والعُشُّ السّعيدُ . .

– قال ابنُ القاسِم :

– أما العَرشُ فأمرُهُ قد انْتهى . . وأما الحبُّ والعُشُّ السعيدُ فمَسْأَلةٌ يَجبُ أنْ تُخرِجيها من حَياتِكِ . .

(يسكت برهة ثم يقول)

– إن المُحبّ لا يُفكِّرُ فى التَّخلُّصِ من حبيبِه .

قالت الفتاةُ :

– ماذا تَعْنى ؟

قال ابنُ القاسِم :

– هل نَسِيتِ ما وَافقْتِ عليهِ اللَّيلةَ الماضِيةَ . . دَعْوتى إلى القَصْرِ ، والتّخلُّصِ منِّى ومن كبارِ الضباطِ ، وتَنْصِيبِ أخيكِ مَلِكًا على السندِ . وعَوْدَةِ الأمراءِ إلى مناصبِهم ، والقضَاءِ على كلِّ أثرٍ للإسلامِ فى هذه البلادِ ؟

قالَتْ بِصوتٍ مُتَهدِّجٍ :

– من أنبأَكَ بهــذا ؟

أجابهــا :

– ليس المهِمُّ من نَقَل النَّبَأَ . . وإنما المُهِمُّ أنَّ النَّبأَ صَحِيحٌ ! !

وسكتت لحظة ترقرقت خلالها من عينيها الدموع وقالت :

– وماذا تَنْوى أن تَفْعَل بِى ؟

ردَّ عليْها :

– كان المفروضُ أنْ أُصْدِرَ عليكِ حُكْماً بالإعدامِ ، لأنَّكِ مُتآمِرَةٌ علَى سَــلامةِ الجيشِ . . ولكنْ سأكتَفِى بإرسالكِ أسيرةً إلى العرَاقِ مع أخيكِ والأمراءِ السابِقين .

سقوط المعبَد الـكبير

فِيمَ كان ابنُ القاسِمِ يُفَـكِّر بعد أنْ أَسَر حَبِيبَتَهُ ، وبَعثَ بها إلى العراقِ . . لا شك أنَّه بِهـذا التصرفِ قد استطاعَ أنْ يَتَخَلَّصَ مِن المُتآمرين عليه ، ولكِنَّه لَمْ يَسْتَطِعْ أن يتخلصَ من مشاعرِهِ ، مِن حُبِّه للأَميرَةِ . . لأن حبِّه لها كانَ أقوىَ مِن أنْ يُنْتَزَعَ بين عشيةٍ وضُحاها . .

ولكنَّ ابن القاسِمِ – القائِدَ الإنسان – لم يسمحْ لهـذا الحبِّ ، برَغم عُنْفِه وتَوَقُّدِه ، أَنْ يَقِفَ به عَن غايتِهِ ، فقد أَخذَ يستعدَّ لفتحِ باقى مُدنِ السندِ ، ويأخذ أُهْبته لهذا الهدفِ الكبيرِ .

بَثَّ عَدداً مِن العُيونِ لِجَمْعِ المَعلوماتِ عن المدنِ التى يَستهدِفُها الغَزوُ . . وبعد أن وقفَ على طبيعةِ هـذه المدنِ ، وحالِ أَهْلِها ، وَضعَ خطةَ الزحفِ والاستيلاءِ !

كانت أهمُّ هـذه المدنِ هى مدينة الملتانِ ، لأنَّ بها مَعْبَدًا كبيراً يَؤُمُّهُ الناسُ من كلِّ حدَبٍ وَصوبٍ ، لِيزوروا الصنمَ المقامَ فيه . . وكانَ هـذا الصنمُ تُقَدَّمُ له القرابينُ والنذورُ ، ويقومُ بخدمةِ مَعبده ستة آلافِ كاهن . .

إذن لابدَّ من استخدام المنجنيقِ مَرَّةً ثانيةً لِهَدْم هـذا الصنمِ . . ولابد أن يُؤخـذَ فى الاعتبارِ مَوقفُ الكهنةِ ، وما

أكثرهُمْ فى هـذا المعبدِ . .

ولكنَّ المعلوماتِ التى لدَى ابنِ القاسمِ عن كميات الذهبِ والجواهرِ الموجودةِ بغُرفِ المعبدِ تُهوِّنُ عليه مشقةَ القتالِ ، لأنَّ ما يُنفِقُه فى هذه المعركةِ ، سَيَستَرِدُّه بعدَ أنْ يستولَى على المعبدِ . .

مهما يَكُنْ من أمر فإن الاستيلاءَ على هذه المدينة سيُكلِّفه الكثيرَ من العَرقِ والجَهْدِ والمالِ . .

وَضعَ ابنُ القاسمِ كلَّ ذلك فى حُسبانِه قبل أنْ يَتحركَ من مدينةِ راور لِيَسْتَولِىَ على باقى مدنِ السندِ . .

ولما أُمِرَ الجيشُ بالزحفِ على مدينةِ الملتانِ وَجدَ فى طَريقِهِ عدداً من المدنِ ، بعضُها قاوَمَهُ وحاولَ صَدَّهُ ، مثلَ مَدِينتىْ « برهناباذ » و« الرور » ، ولكنَهُما ما لبثتا أنْ أَعلنتا الخضوع ، وبَعضُها رَحَّب بِلِقائهِ مثل « ساوندى » و« بسمند » و« السكة » .

لم تكُنْ هـذه المدنُ الخَمْسُ ، ما قاوَمَ منها وما اسْتَسْلَمَ ، بشَىء ذِى بالٍ فى تَقْديرِ ابنِ القاسمِ وحسابه . . إنَّ هَدَفَه الكبيرَ أنْ يسْتَوْلِىَ على مدينةِ الملتانِ . المدينةِ ذاتِ المعبدِ والصنمِ والكهنةِ والذهبِ والفضةِ . . المدينةِ التى لم تَذُقْ طَعْمَ الحَربِ ، لأنَّ الكَهنةَ جعَلُوا منها مدِينةً مُحرَّمةً على القتالِ ، المَدينة التى تَهْفُو إليها قُلوبُ أَهْلِ السندِ ، لأن بها الصنمَ الكبيرَ الذى يَتبرَّكُون به . .

كانوا يَهْـدون الأمْوالَ لهـذا الصنمَ ، ويُنذرونَ له النُّذُورَ ، ويَحُجُّونَ إليهِ ، فَيطُوفون به ويَحلقُون رءوسَهم ولِحَاهُمْ عِنْده ،

ويَستمِدُّون منه البركةَ والشفاءَ .

وإذ كان ابنُ القاسِم قد سَيْطَرَ على هــذه المدنِ وأخْضَعَها لِطاعتِهِ ، فإنَّه اقْتَربَ من هدفهِ ، وهو الاستيلاءُ على المدينةِ . .

عليه أنْ يَعْبُرَ نَهرَ بياس حتى يصِلَ إلى الملتانِ . .

وعليه أنْ يبدأَ بِتَحْطيمِ الصنم حتى يُوقعَ الرُّعبَ فى نفوسِ أهلِها . .

وفِعْلاً نَفَّـذَ الشَّطْرَ الأول من الخطةِ ، وعَبَرَ النَّهرَ ، وأصبحَ على مشارفِ المدينةِ(١) .

ثم أمر بِنَصْبِ المَنْجَنيقِ لِيَقْذفَ الصنَمَ بحَجَر ضَخْمٍ . . ويُحَطِّمَهُ كما حَطَّم صنَمَ الدَّيْبلِ ! !

ولما عَلِمَ أهلُ الملتانِ أَنَّ المسلمينَ على وشكِ اقتحامِ مَدِينَتِهِم . . أَغْلَقُوا أبوابَها ، وَوقفوا وراءَ الجُدرانِ يَنتظرون ما يَحدثُ .

وفيما هُمْ كذلك إذا بِرجالِ المَنْجنيقِ يَقْذِفُونَ الصَنَم الكبيرَ بِحَجَرٍ ثَقيلٍ ، فَهَـوَى على الأرضِ قِطَعاً مُتَناثِرَةً . .

خَرَجَ الـكُهانُ من المَعْبَدِ هائمينَ على وُجوهِهِم فى الشَّوارع ، لأنَّ الدَّوِيَّ الذِى أَحْدَثَه سُقُوطُ الصنَمِ كان أشَدَّ مِنْ هَزِيمِ(٢) الرَّعدِ ! !

ولكنَّهم ما لبثوا أنْ اسْتَرَدُّوا أنْفَاسَهم ، فَراحوا يُحَرِّضُونَ أَهْل

(١) مشارف المدينة : بالقرب منها . (٢) هزيم الرعد : دويه .

المُلْتَانِ على القِتالِ ، والدِّفَاعِ عن مَدينتهم حتى لا يَسْتَوْلِىَ عليها المُسلمونَ . .

إلا أنَّ أهـلَ المُلْتانِ كانوا من الرُّعبِ والخوفِ والفزعِ بحيثُ لمْ يُفكِّر واحـدٌ منهم فى فتح أبواب المدينةِ ، والخروج إلى المسلمينَ .

إنَّهم رأَوْا بأَعينهمْ كيفَ تَحَطَّمَ مَعْبُودهُم فى لحْظَةٍ واحدةٍ ، وكيف ارتَعَدَتْ فرائِصُ الكَهنةِ فتَركُوا المَعْبَد ، واحْتَموا بالبُيوتِ والشوارِع . .

كما أنَّهم يَعْلَمُون أن مُعظَمَ مُدنِ السندِ سَقَطتْ فى أيدِى المُسلمين ، وأنَّ مَلِكَهُم مات قَتيلاً فى إحدى المعارِكِ ! !

كيف يُغَامِرُونَ إذَنْ بالخروجِ لِلْمُسلمين وأمامَهُم كلُّ هـذه الدَّلائِل . . ؟

أَصمُّوا آذانَهُم عن نِداءِ الكُهانِ ، ولَبثَ كلُّ مِنْهُم فى مَكانِه يَنْتَظِرُ المفَاجآتِ . .

كان لَدَيْهم مَخْزُونٌ وفيرٌ من المؤَنِ والسِّلَعِ . . وكانت مَصادِرُ المياهِ التى يَسْتَقُونَ منها ، مُغَطَّاةً خارجَ المدينةِ حتى لا يَعْرفَ مكانَها أحـدٌ . . فقَرَّرُوا أن يَعِيشُوا وراءَ أسْوارِ المدينةِ حتى يَفُكَّ المسلمونَ حِصَارَهُم ، وَيتركُوهُم وشَأْنَهُم . .

ولكنَّ المسلمين كانوا مُتمَرِّسِينَ بالصَّبر على مِثلِ هـذه المواقفِ ! !

إنَّهم لنْ يمــلُّوا حِصَارَ المدينةِ ، ولو طال إلى بِضْـعَةِ أشْهرٍ . . إلا أنَّ اللهَ اراد ألاْ يَطُولَ . فقد عِلم ابنُ القاسِمِ مِن أحَدِ أبناءِ الملتانِ ، وكان قد خَـرَجَ لبعضِ شأنِه قبلِ فَرْضِ الحِصَار ، أينَ تَقَعُ مصَــادِرُ المياهِ التى يشْرَبُونَ مِنها . .

أَرْسَلَ على الفورِ من يَقْطَعُ المِياهَ عن المدينةِ ، وانْتظَرَ رَدَّ الفِعْلِ . .

فُوجِيءَ أهلُ الملتانِ بانقطاع المياهِ عنهمْ ، فَعَرفوا أنَّ الجيشَ العربيَّ هو الذى قَطَعَها ، وتشاوَرُوا فى الخروج من هذا المأزقِ . . كان مِنْ رَأىِ شُيوخِهِم أن لا صَبْرَ لأهـلِ المدينةِ على العَطشِ ، فإمَّا أَنْ يَخْـرُجُوا للقِتَالِ ، وإما أنْ يَرْفَعُوا رايةَ الخضوعِ والاستسلامِ .

اخْتَاروا عَدَدًا من وُجهاءِ المدينةِ ، وَبَعثُوا بِهِم إلى القائِد العربىِّ يُفَاوِضُونَه فى فَكِّ الحصار ، وإعطائِه الجِزْية التى يُرِيدُها . .

وفى خَيْمـةٍ مُتواضِعَةٍ جَلَسَ وَفْـدُ الملتانِ مع ابنِ القاسم يُقَدِّمُون له فُروضَ الطَّاعةِ ، ويُعلِنون أنَّ مَدينَتَهُمْ مفتوحة يَسْتَطيع أنْ يَسْتَوْلِيَ عليها بِدُونِ قتالٍ . .

جَنَح ابنُ القاسِمِ إلى السَّلمِ ، تَلْبيةً لِرَغبَةِ أهْـلِ الملتانِ . وأمَرَ جَيْشَهُ بأَنْ يَدْخلَ المدينةَ مُسالما ، إذ لا حَرْبَ فيها ولا قِتالَ . .

وإذْ كانَتْ ثَرْوةُ المدينةِ كلُّها تَتَجمَّعُ فى الْمَعْبَدِ الكبيرِ ، فَقد اتَّجَه إليهِ ابنُ القاسِمِ ، وبِرفْقَتِهِ عَددٌ من الضُّباطِ ، ولَشَدّ ما كانتْ دَهشَتُه حين رأَى الغُرَفَ العَديدةَ التى تَحْتَوِىهـذه الثّروةَ :

غُرفةٌ وُضِعَتْ فيها آلافُ القِطَعِ من الذَّهَب الخالِص .
غُرفةٌ تَضُمُّ مجموعةً نادِرةً من الأقراطِ والعُقُودِ الثَّمينةِ .
غرفةٌ تَزْخَرُ بالأسْلِحَةِ المُوَشَّـاةِ(١) بالذَّهبِ .
غرفةٌ بها عَددٌ من تِيجانِ مُلوكِ السندِ .
غرفةٌ بها عُمْلاتٌ سِنْدِيَّةٌ مِنْ مُخْتَلفِ العُصورِ.
التَفتَ ابنُ القاسِمِ لِمَنْ حَولَه وقال لهم :
– بِكَمْ تُقدّرُ هـذه الثَّروةُ ؟
قال أحدُهم :
– بِحَوالَىْ مائةٍ وعشرين ألفَ دِرْهمٍ من الذَّهبِ . .
قال :
– أتَدْرونَ كم أَنفَقْنا فى الوُصولِ إلى هذِهِ المدينةِ ؟
قالوا :
– لا .
قَال :
– إنَّنا أَنْفَقْنا سِتينَ ألفَ دِرْهَم ، ومَعْنَى هـذا أَنَّنا سَنُدْخِلُ بَيت مالِ المُسلمينَ سِتين ألفَ دِرْهَمٍ من هذه المدينةِ وحْدها . .

ثم أمَرَ بأَنْ تُجْمَعَ هـذه الثَّروةُ ، وتُرْسلَ فى إحدى سُفُنِ الأسْطولِ إلى العراقِ ، وقَبْلَ أن يُغادِرَ الْمَعْبَدَ سأَلَهُ أحدُ الكَهنَةِ :
– ما هو مَصِيرُنا الآنَ ؟

(١) الموشـــاة : المزينة .

ردَّ عليهِ ابنُ القاسِم :

* إن عَهْدَ الأصْنام قَدِ انْتَهَى . . فإمَّا أنْ تَدْخُلُوا الإسْلامَ ، وإمَّا أن تَدْفَعُوا الجِزْيةَ . .

هَزَّ الكاهِنُ رأسَهُ وقالَ لابنِ القاسم :

– سَأَعرِضُ الأمرَيْنِ على جَمِيعِ الكَهنةِ ، وأُخْبِرُكم بما اسْتَقَرَّ عليهِ الرَّأْىُ .

وَبِسُقوطِ المعبدِ الكبيرِ فى أيْدِى المسلمينَ ، تَمَّتْ أَخْطَرُ مَرْحَلَةٍ من مَراحِلِ فَتْحِ السّندِ . وقد اتَّخَذَ ابنُ القاسِمِ من أحدِ بيوتِ المدينةِ مَقرًّا للحكمِ ، وَبَدأَ يمارِسُ تَطْبيقَ مَبادىءِ الإسلامِ فى كلِّ المدُنِ التى استَوْلَى عَلَيْها . .

أقامَ مَسْجِدًا فى كل مدينةٍ ، وخَصَّصَ عَددًا من المُتَفَقِّهِينَ فى الدِّينِ لِيُدَرِّسُوا للنَّاسِ شَرِيعةَ اللهِ ، وكانَ مِنْ أَثَرِ بناءِ المَساجدِ وتَدريسِ عُلومِ الدِّينِ فيها ، أن أقبَلَ أهل السند علَى الإسلامِ بِقلوبٍ ظَمْأَى إلى النُّورِ ، ونُفوسٍ متشوفةٍ(١) إلى تعاليم السماءِ . .

وسرعانَ ما شَعرُوا بتَغييرٍ جَوْهَرِىٍّ وعميقٍ فى أسلوبِ حياتِهمْ .

شَعروا بأَنَّ علاقتَهم باللهِ تَقُوم على أَساسِ كتابه وسُنَّةِ نَبيِّـهِ ، وأنَّ الصَّفاءَ الروحِيَّ علامَةٌ من عَلائِم الإيمانِ ، يُحَبِّبُ لِلمرءِ أنْ يُقْبل على كلِّ ما هُوَ سَامٍ ونَبيل ، ويُبَغِّضَ إليهِ كلَّ ما هو سَافِلٌ ومَرْذُولٌ . .

---

(١) متشوفة : متطلعة .



ياقوت وذهب وسيوف مرصعة

وَشَعَروا بأَنَّ المحبةَ والمودَّةَ والرَّحمةَ والإخــاءَ أساسُ عَلاَقَتِهِم بَعْضِهم بِبَعْض ، فلا يَجُوزُ لِمُسْلِمٍ أن يَخْفِر ذِمــةَ مُسْلِمٍ ، وعلَيْهِ أن يَصْدُقَ إذا وَعَـدَ ، ويُوفِى إذا عاهَدَ ، ويَرْعَى حُرْمَةَ الجارِ ، ويُبادِرَ إلى مَعُونةِ المُضطَرِّ ، ويُعطِى المقْتِرَ ولو كانَتْ به خَصَاصةٌ (١) .

وشَعروا بأنَّ المناصِبَ ليستْ وقفًا على قبيلةٍ أو عَشيرةٍ ، وإنما يَتَبَوَّأها مَنْ هُوَ أَهْلٌ لها ، دونَ نَظَر إلى أىِّ اعتبارٍ آخَـر .

---

(١) الخصاصة : الحاجة الملحة .

الخلافة بين الإخوة والأبناء

كانتْ الخِلافَةُ مُنْذُ جَعلها الخَليفةُ الأمويُّ الأولُ مُعاويةُ ابنُ أبِي سُفْيانَ بالوراثةِ ، وإن اتَّخَذَتْ شكلَ البَيْعَةِ والاختِيارِ ، مَثَارَ خِلافاتٍ وصِراعاتٍ . وقَد أَثَّرَتْ هـذْ الخِلافاتُ والصِّراعاتُ فى سِياسَةِ الدَّولةِ الأمويةِ تأثيراً بلَغَ حَـدَّ سَفْكِ الدِّمـاءِ .

فَبَعْضُ الخُلَفاءِ الأمويِّينَ رَتَّبُوا البَيْعةَ لأبنَائِهِمْ واحداً بَعْدَ الآخَرِ . ولكِنْ مَا إنْ يَتولَّى أحـدُ الأبنَاءِ مَنصِبَ الخِلافةِ ، حتَّى يُحَاوِل أَن يَعزِلَ أَخاهُ ، ويأخُذَ البَيْعَةَ لابْنِهِ . . وسَنَكْتَفِى بِذِكْر واحِدٍ مِمَّنْ سَارُوا عَلَى هـذا السَّنَنِ ، وهوَ الوليدُ بنُ عبدِالمِلِكِ .

كان عبدُ المَلكِ قَدْ رَتَّبَ الخِلافَةَ لابنَيْهِ الوَلِيدِ وسُليمانَ مِنْ بَعْدِهِ . . فلَمَّا تَقَدَّمَتْ السِّنُّ بالوليدِ ، أَرادَ أن يَعْزِلَ أخَاهُ ، وَيأخذ البَيْعَةَ لابنِه عبدِ العَزيز . ومِنْ هـذِهِ النُّقْطَةِ بَدأَ الصراعُ بَيْنَ الأَخَوَيْنِ ، وانْضَمَّ لِكُلٍّ مِنْهُمَا فَرِيقٌ يُشَايِعُهُ ، ويُؤَيِّـدُ وِجَهةَ نَظَرِهِ . .

أمَّا الذِينَ أَيَّـدُوا الوَليدَ فى عَزلِ سُلَيْمانَ وأَخـذِ البَيْعَةِ لِعَبْدِ العَزِيزِ ، فَقَـدْ كانَ على رأسِهِمْ الحَجَّاجُ وقُتَيْبَةُ بنُ مُسلم . ولكِنَّ الَّذينَ أَيَّـدُوا سُلَيمانَ كانَ مُعظمهم منَ الْمَفْصُولِينَ فى عهْـد

الوَليدِ ، أو بَيْنهُمْ وبَيْنَ الحَجَّاجِ تراتٌ(١) بِسَبَبِ فتْنَةِ الخَوارِج . .

ولهـذا كان الوَليدُ يَعتمِدُ على الحجّاجِ وقُتيْبَةَ فى عزلِ سُليمانَ ، لِمَا لَهُمَا من تأثيرٍ فى مُختلفِ بِقاعِ الدَّولةِ الإسْلامِيةِ . وقد دعاهما ذاتَ يَومٍ إلى اجتماعٍ بِدَارِ الخِلافَةِ فى دِمشق ، لِيُعلنا رأيهما أمامَ المَلأ فى عَزْلِ سُليمانَ .

افْتَتَح الوليدُ المجلسَ بالثناءِ على الحجَّاجِ ، وتَوفيقهِ فى فتحِ السِّنْدِ علَى يَدىْ مُحمَّدبن القاسم ، ثم أَثْنَى على قُتَيْبَةَ والجُهودِ التى بَذَلَها فى فَتْح تركِسْتانَ وخُراسان . . وأَفْصَح بعدَ ذلك عن رغبتهِ فى أخذِ البيعةِ لابنهِ عبد العزيز . .

أيَّدَ الحَجَّاجُ وقُتَيْبَةُ وِجهةَ نظرِ الخليفةِ ، وأكدَ كلٌّ منهما بالحجّةِ الدَّامغةِ(٢) أنَّ عبدَالعزيزِ أحقُّ من سليمانَ بالخلافةِ . وكان رأيُهما مَعروفاً من قبلُ فى هذا الموضوعِ . .

تَهَلَّلَ وجهُ الخليفةِ ، وطلبَ من باقى الحاضرين إبداءَ آرائِهم ، فرفضَ البعضُ ، وعرضَ عليهِ البعضُ الآخرُ أنْ يَسْتأذِنَ سُليمانَ فى تركِ البيعةِ ، لأنَّ وصيةَ أَبيهِ مَنحتهُ هـذَا الحقَّ !

رَأَى الخليفةُ ألاّ يَبْدأَ هـذهِ المسألةَ الشائكةَ بِخِلافاتٍ فى الرَّأىِ ، فوافقَ على استئذانِ أخيه ، وانفض المجلس .

ماذا حَدَثَ بعدَ ذلكَ ؟

سارعَ الذين كانُوا على صِلةٍ بسليمانَ بنِ عبدِ الملكِ ونَقلُوا إليهِ

---

(١) التراث : جمع ترة وهى الثأر . (٢) الدامغة : القاطعة .

كلَّ ما دارَ فى المجلسِ فأَثارُوا حَفِيظَتَهُ على الحجَّاجِ وقُتيبةَ . .

سكَتَ الخليفةُ المُنتظَرُ بُرهـةً ، ثم قالَ والغَيظُ يَقطُر من كلماتِه :

– واللهِ لَئنْ وُلِّيتُ الخلافةَ يومًا لأَسقينَّ شوارعَ العراقِ بِدماءِ بَنى ثَقيفٍ . .

ثم عاشَ سليمانُ فَتْرةً منَ التَّوجُّسِ والحِيرةِ والقَلقِ .

إنَّ أخاهُ يُمَـهِّـدُ لعزلِهِ ، وقَد أفصحَ عن حقيقةِ نواياهُ . . كما أنَّ هناكَ عدداً منَ المنتفعينَ بالوليدِ بَدأُوا يُؤثِّرونَ فى الرأىِ العامِّ فى الشامِ وبَغدادَ ، ومنْ يَدرِى . . رُبَّما يكُونُ تأثيرُهـمْ قد امْتدَّ إلى المغربِ الأَقصَى أيضاً . .

ماذا يكونُ مصيرُه لَو تمّ العزلُ ، وأُخِذَتْ البيعةُ لعبدالعزيز ابنِ الوَليدِ . .

ستُوصد(١) فى وَجْهِهِ أَبوابُ المستقبلِ . . سينصرفُ عنهُ أصدِقاؤُه ، ويَتفرقُ أَعوانُه خَوفاً من الخليفةِ الجديدِ . .

إذَنْ ماذَا يَفْعلُ لِيُوَاجِهَ هذهِ المحنةَ . . هــذه المُشكلةَ التى نَسَجَتْ خيوطَها أطماعُ أَخيهِ . .

عليهِ أن يَصْبِرَ . . ويُناضِلَ . . ويُكَوِّنَ حَوْلَهُ حِزباً من المتذَمِّرينَ مِن سياسةِ الوَليدِ . . ويَعِدُهم بالمناصبِ والأموالِ يَومَ يَتولَّى الخلافةَ .

---

(١) توصد : تغلق .

وفِعْلاً بَدأَ هـذِه السِّياسةَ . . أخذَ يَلتقِى بالمتذمِّرين فِى قصْرِهِ صباحَ مساءَ ، ويَعدُهم ويُمنِّيهم . . ويُقِيمُ لَهُمْ المآدبَ الفاخرةَ ، وكان سُليمانُ أكُولاَ شرِهًا . . وكانَ كلما دَعاهُ الوليدُ إلى قصْرِهِ ، يَعتذِرُ خوفاً مِنْ أنْ يَطلبَ منْه النُّزولَ عنِ الخلافةِ ! !

وذاتَ يوْمٍ هَمَسَ فى أُذُنِهِ بَعضُ جُلَسائهِ أنَّ الحجَّاجَ على شَفَا الموتِ(١) ، لأنه مريضٌ مرَضًا لا يُرجَى منه شِفاءٌ . . فَخَشِيَ سُليمانُ أنْ يَمُوت الحجَّاجُ مِيتةً طبيعيةً ، لأنَّه يُريدُ أَنْ يكونَ مَوْتُه على يَدَيْهِ . . ويُنَفِّذُ فِيهِ وَعِيدَهُ . .

ولكِنَّ القدرَ لمْ يُعْطِ سليمانَ هـذه الفُرصةَ ، فقَدْ اشْتَدَّ المرضُ بالحجَّاجِ ، وأسلَمَ أَنْفَاسَهُ الأخيرةَ فى العامِ الخامِسِ والتِّسْعينَ بَعدَ الهِجْرةِ . . وعِندما نُعِيَ إلى سليمانَ حَزِنَ حزنًا شديداً ، لا لأنَّ الحجَّاج قد ماتَ ، ولكن لأن فرصةَ الانتقامِ أفلتت منه . .

---

(١) على شفا الموت : على حافته ، والمراد أنه قريب منه .

بـداية المأسـاة

وبَيْنا الصِّراعُ على أشُـدِّهِ حَوْلَ الخلافَةِ بَيْنَ الوليدِ وسُليمانَ ، كان ابنُ القاسِمِ يَبْنِى مُجْتَمعًا جَديدًا فى السِّنْدِ ، أَسَاسُـه العَدَالةُ والمُسَاواةُ . .

خصَّصَ للْمُعْوِزينَ والفُقَراءِ ما يَكْفِيهم مِن المُؤَنِ . .

ورَفَعَ الضَّرائِبَ عنْ صِغَارِ التُّجارِ وذَوِى الدُّخُولِ الضَّئيلةِ . .

وهَيَّأَ لِكُلِّ مُتعَطِّلٍ عَملاً يَرْتَزِقُ مِنْهُ . .

وعلَّم الجميعَ أنَّ الناسَ سَواسِيةٌ فى الحُقُوقِ والواجِباتِ . . لا فَضْلَ لعراقىٍّ على سندىٍّ إلاّ بالتَّقْوَى وَالعمَلِ الصَّالِحِ . .

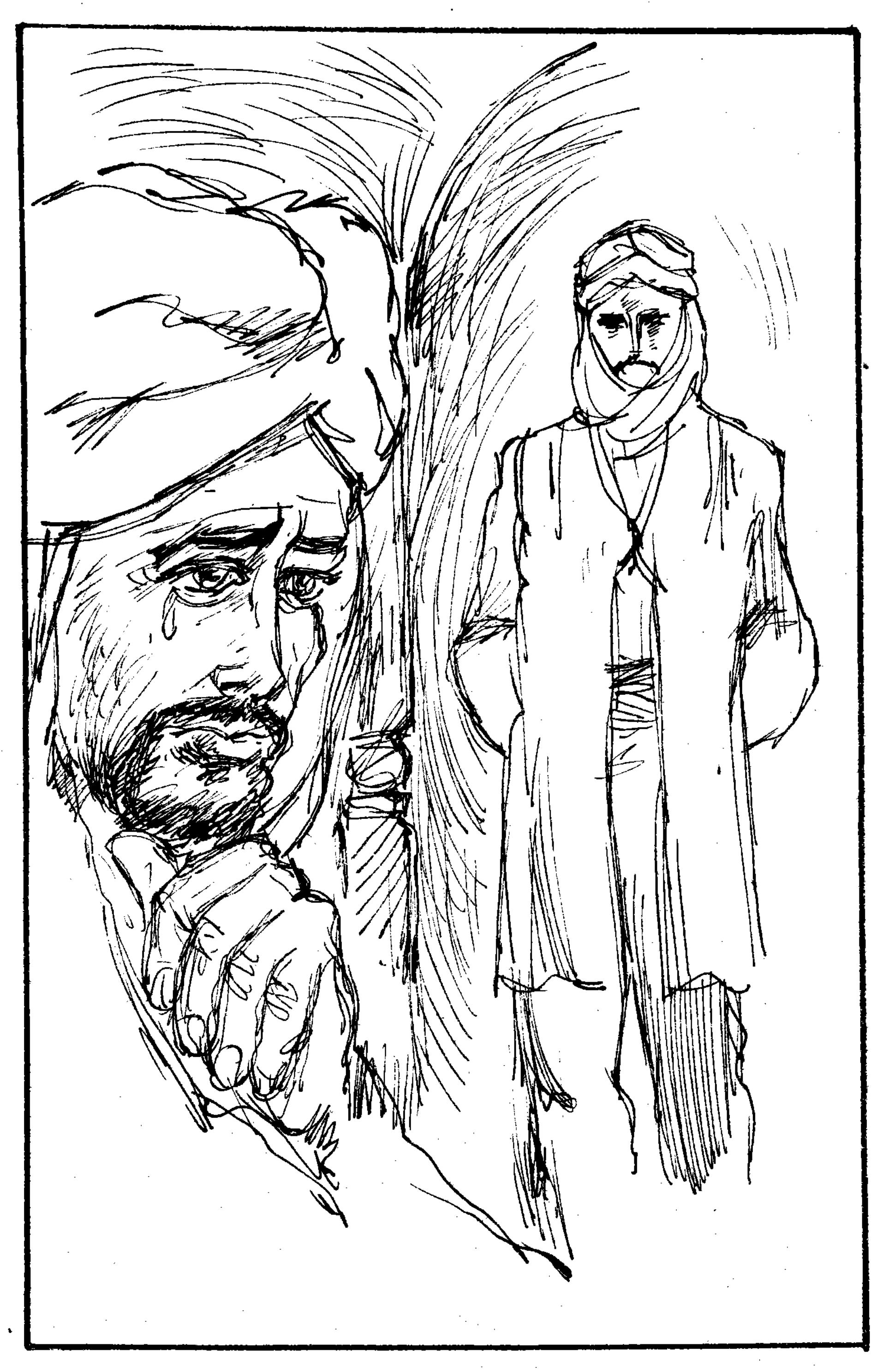
* * *

وَفيما هُوَ يُدِيرُ شئُونَ السِّنْدِ علَى أَساسِ تَعاليمِ الإسْلامِ ، إذا بِنَبأٍ يَأتِيهِ مِن العِراقِ ، فَيُثِيرُ فى نَفْسِه كَوَامِنَ الشَّجَنِ ، ويَهُزُّ فى عيْنَيْهِ عَصِىَّ الدَّمْعِ ، ويَهيجُ فى صَدْرِه رَواقِدَ الآلامِ .

كان هَـذَا النَّبأُ عَنْ وفاةِ الحجَّاجِ . . وكان ذلكَ فى العام الخامسِ والتِّسعين بعدَ الهجرةِ .

ووفاةُ الحجَّاجُ . فى حِسَابِ ابن القاسِم وتَقْدِيرِه بِدَايةُ مَأسـاةٍ . . فالحجَّاجُ بِمَثابةِ القَبَسِ الَّذِى يُضِىءُ لهُ الطَّريقَ .

حاولَ ابنُ القاسِمِ فى تلك اللَّحْظَةِ أنْ يحْبِسَ عَبَراتِهِ ، ويُبْ ى



بداية المأساة (موت الحجاج)

تَجلدَه ، ولكِنْ فَجيعَتَهُ فى الحَجَّاجِ كانَت أكبَرَ مِن أنْ تُحْبَسَ فيها الدُّمُوعُ . كانَ يَشْعُرُ أنَّ نَفْسَهُ تَذُوبُ حسَرَاتٍ . . وأنَّ قَلبَهُ يُجهشُ (١) فى أضَالِعِه ، وأنَّ شُعْلَة مِنَ الْهَمِّ والغَمِّ والنّكَدِ تتّقِدُ فى جَوانِحِه ! !

ولمّا جَفَّتْ عَبَرَاتُه ، وخفَتَ نَشِيجُهُ ، رَاحَ يَزِنُ الماضِىَ والحاضرَ والمستقبلَ بميزانٍ دَقِيقٍ . .

إنَّه فَتح السِّنْدَ ، وَجعَلَ مِنها وِلاَيةً إسلاَميةً ، وأقامَ فيها شَعَائِرَ اللهِ ، وخَاضَ فى سَبيلِ ذلكَ عَشَرَاتِ المَعَارِكِ . . وامْتلأ جَسَدُهُ بالجِرَاحِ . ولكِنَّهُ كانَ يشعُر دائماً أنَّ يَدَ اللهِ تُضمِّدُ جِرَاحهُ ، وَتَشُدُّ أَزْرَهُ ، لِأَنَّهُ يُحارِبُ تَحْتَ رايَتِهِ ، ويُجَاهِدُ مِن أجْلِ إعلاَءِ كَلِمَتِه . .

ماذا يُخَبِّئُهُ لَه القَدَرُ ، وقَدْ ذَهَب الحجَّاجُ حَاميهِ ورَاعيهِ ؟

هَلْ يَتَنَكَّرُ له المُستقبلُ ؟ أمْ يَحُوطه الخَلِيفةُ – وهو يَعْلَم مَبلَغَ جِهَادِهِ – بالتَّقْدِيرِ والإعْزازِ ؟

إنَّه لا يَشُكُّ لَحْظَة فى أنَّ الوليدَ خليفةٌ عادِلٌ ، يَقْدُرُ المُجاهِدينَ حقَّ قدرِهِم . ولكِنَّ لِبنِى ثَقِيفٍ كُلَّ مَحَبَّةٍ وإعزازٍ ، وعلَى هـذِه الرَّكِيزَةِ سَيَبْنِى آمالَهُ فى المُستقبلِ ، وسينْجِزُ ما بَقِيَ من فتوحاتٍ . .

كَانَتْ أمامَهُ مدينةٌ واحِدَةٌ ، اسْمُها الكيرج ، وعَليهِ أن يَفتحَ هذه

(١) يجهش : يميل للبكاء .

المَدينةَ حتى لا يبقَى فى السِّندِ كلها مكانٌ لَمْ يدْخلُهُ المُسلمون.

أَمَـرَ بِإعلان التعبئةِ، والتَّحَـرُّكِ إلى هـذِه المدينةِ، ولَمْ يأمُر بنقْل المنْجَنيقِ إليها، لأنّهُ لا يُوجدُ فيها صَنمٌ ضخمٌ أو معْبدٌ كبيرٌ. وإنما يُوجَدُ بها جَيشٌ مُدرَّبٌ. مجهزٌ، يتولّى قيادتهُ الملكُ دُوهَر.

علمَ الملكُ دوهَر أن الجيشَ العربيَّ فى الطريقِ إلَى مدينتهِ.. فنادَى فى جُنودهِ بالتَّأهُّبِ والاستعدادِ.. وسرعانَ ما أُحضِرَتْ الأفيالُ، وامتطاها المُقاتلون، واتّخذتْ كلُّ كتيبةٍ موقعهَا انتظاراً للمعركةِ..

كان الملكُ دُهر يُريدُ أنْ يَبْقَى الملكَ الوحيدَ فى السندِ، وأَن يُذيقَ الجيشَ العربيَّ مرارةَ الهَزيمةِ، بعد أن ذاقَ حلاوةَ الانتصارِ، وكان يَتخيلُ أنَّ المسلمين مُجهدون من أَثرِ المعاركِ التى خاضُوها مُنذُ دخولِهم بِلادَ السِّندِ، وأَنَّهم لنْ يَكونُوا فى قِتَالِهم هـذه المرةَ بمثلِ القُوَّةِ التى كانُوا علَيْها فى المواقعِ السَّابقةِ.. وعلى هذا الزَّعْمِ أَوْهَمَ ضُبَّاطَه وجُنُودَهُ أَنَّهمْ سينتصِرُون لا مَحالَةَ، وأن السِّندَ ستكونَ خالصةً لَهُم بَعدَ إجْلاءِ المسلمين عنها.

ثم دُقتْ طبولُ الحربِ، وتقدم الملكُ الصفوفَ بِفيلهِ الضخمِ، وكانَتْ أشِعَّةُ الشَّمْسِ تَنعكِسُ علَى تَاجه فتُرسِلُ وَمِيضًا يَخْطفُ الأَبصارَ، وكانَ حَوْلَهُ عددٌ منْ عبيدهِ وحَرسِ قصرِه شاهرينَ الرِّماحَ والسُّيوفَ، وخَلفَهُ الوُزراءُ والضُّباطُ

ووُجَهاءُ المدينةِ . .

مَنْظَرٌ ذَكَّرَ ابنَ القَاسِمِ بِمعركتهِ معَ الملكِ ذاهر . . إذْ خرجَ لِلقِتالِ وهُوَ فى كاملِ أُبَّهتهِ وزينتهِ . . ولكِنَّهُ ما لَبِثَ أنْ سقطَ صريعاً . . وداستْ الخيلُ تَاجهُ ، ولَوَّثَتْهُ بالتّرابِ .

قال ابنُ القاسِمِ فى نَفْسِهِ :

– لأَجعلنَّ من هذِهِ المَعركةِ نِهايةً لِلْوَثنيةِ فى السِّندِ . . ولأُذِيقَنَّ هـذَا الملكَ نفْسَ الكأسِ التى تَجرّعَها الملكُ ذَاهِرُ ! !

ثم أَمَرَ بالزَّحْفِ وبَدْءِ القِتَالِ . . فاشْتَبكَ الجَيْشَانِ فى معركةٍ استمرَّتْ بِضْعَ ساعاتٍ حاولَ الملكُ دوهر خِلالها أنْ يُبُثَّ الحَمِيَّةَ فى جنودِه ، حتى يُقاتلوا باستماتةٍ واستِبْسَالٍ ، ولكنَّهم كانُوا يَتساقَطونَ جَرْحَى وقَتْلَى ، وَينْكُصُ بَعْضهُم على أعْقَابه حذراً منَ الموتِ . .

وَبيْنا المَعركةُ حاميةُ الوطيسِ ، والخَيلُ العربيةُ تَقْتَحِمُ صفوفَ الأفْيَالِ المتراصَّةِ ، فَتُحْدِثُ فيها ثَغَراتٍ يَنْفُـذُ منها المسلمونَ إلى داخلِ الجيْشِ السِّنْدِىِّ ، ويَفْعَلُونَ بأعدَائهِمْ الأفاعِيلَ ، إذا بابنِ القاسِمِ يَلْتَقِى بالملكِ دُوهر وَجْهاً لِوجْهٍ ، وكانتْ لَحْظَةً حاسِمَةً وقَفَ فيها التاريخُ يُدَوِّنُ آخرَ سطرٍ فى تَحْرِيرِ السِّنْدِ .

لَمْ يستمرّ هذا اللِّقـاءُ أَكْثَرَ من دَقِيقةٍ انْقَضَّ خِلالَها ابنُ القاسِمِ بِسَيْفِهِ علَى الملكِ فأَرْدَاهُ (١) قَتِيلاً . ثم كَبَّرَ وكَبر معهُ

(١) أرداه : أهلكه .

المسلمونَ . . وشَدُّوا علَى أعْدَائِهِمْ ، فمزقُوهُم شَرَّ مُمَزَّقٍ ! ! بَعضهُم هربَ فى الجِبالِ ، وبَعضهُم احْتمى بالمدِينةِ ، وعَدَدٌ منهم استَسْلَمَ لِلأَسْرِ . .

كانَ أولُ شيءٍ فَعَلَه ابنُ القاسِمِ فى مدينةِ الكيرج أن أمَرَ ببناءِ مسجدٍ تُمارَسُ فيه الشعائِرُ الإسلاميةُ ، ثم رَاحَ يُنَفِّذُ مبادِىءَ الإسلام ، فحَرَّرَ العبيدَ الذينَ كانوا يَعملُونَ فى قُصُورِ الأُمراءِ ، ورَفع رواتِبَ الأُجراءِ ، وخَصَّصَ جانباً من الثَّرْوةِ التى خلَّفها الملكُ لِلْفُقراءِ والمساكِين ، وأمَرَ بإقامَـةِ مائدةٍ كلَّ يومٍ لمن شاءَ أَنْ يتناولَ الطَّعامَ .

أحسَّ الناسُ فى مدينة الكيرجِ - لأَوَّلِ مرّةٍ - طَعْمَ الرَّفاهِيةِ والرَّاحَةِ النَّفسيَّةِ والأَمانِ . . أىُّ نِظامٍ هذا الذِى جاء به القائدُ المسلِمُ ، فَبَدَّلَ خَوْفَهُم أَمْنًا ، وَذُلَّهُمْ عِزًّا ، وفقْرَهُم سَعادَةً وَرغدًا ؟ أىُّ نظامٍ هـذا الذى جَعَلَ العبدَ حُرًّا ، وَسوَّى بَينَ الأَغنياءِ والفُقَـرَاءِ ؟ إنَّهم ورِثُوا الذُّلَّ والفَقْرَ والمسكَنَةَ عَن آبائِهِم ، وحَسِبُوها قدَرًا مقْدُورًا علَيْهم فى الحياةِ . . لا مَخْرجَ منها ، ولا محِيدَ عنها . . ولكِنَّ هـذا الميراثَ تَضاءَلَ وانْكَمشَ خِلالَ أَيَّـامٍ . . إنَّهُم إِذَنْ آدَمِيُّونَ مثلُ باقِى الآدَميينَ ، مِن حقِّهم أَن يَنعمُوا بما فى الحياةِ مِن زُخرفٍ ومتاعٍ . . بما فيها من رَغدٍ ونَعِيمٍ . . بما فيها من حُرِّيةٍ وانْطِلاقٍ . . وأمامَ الصُّورةِ الجديدةِ للحياةِ قَرَّرُوا أن يَرُدُّوا بَعضَ الجميلِ لمنْ جعَلهُم أَكْفاءَ ، لا تفاوْتَ

بينهم ولا تفاضُلَ ، لمن أَعْتقهم من العُبُودِيَّةِ التى رَسَفُوا (١) فيها أحقابًا ، هُم وآباؤُهُم من قبلهم . .

جَمعَ أَهلُ المدينةِ رسَّاميهم ، وطَلَبُوا مِنهم أن يرسمُوا صُورةً للْقائِدِ المسلِم ، اعترافاً بما أسداهُ إليهم من نعمٍ وأَفضالٍ . . وعلى الفورِ تبارَى الرَّسامُون فى إخراجِ صُورةٍ واضحةِ المَلاَمحِ لَلقائدِ العَادِل .

وَبعد أن تمَّ رسمُ الصُّورةِ علَّقُوها فى مدْخلِ المدِينةِ ، كما علَّقوا نُسَخًا منها فى ساحاتهم وأنديتهمْ . .

كانت الصّورةُ التى لَديهم عن ابنِ القاسِمِ أنه نَمُوذَجٌ جَدِيدٌ من الحُكامِ ، لاَ تشُوبُ أخلاقَهُ غَطْرسةٌ أَوكِبرياءُ ، وَلاَ يَشِين سُلُوكَهُ ميلٌ إلى الشَّهواتِ والنَّزَوَاتِ . .

ثم رأَوْا بأَعيُنِهِم أنَّ الصُّورةَ التى فى مُخَيلَتِهم عنِ القائِد المسلمِ لا مُبالغةَ فيها ، ولا افتعالَ . . ولهـذا أحبُّوهُ ، ورسَمُوهُ فى قلُوبهم ، قبلَ أن يَرْسُموهُ بِرِيشِهم ويُعَلِّقُوا صُورَهُ فى كلِّ مكانٍ . .

إن ابنَ القاسِمِ كانَ جديراً بأَنْ يَحْظَى بِكُلِّ تَبْجيلٍ واحْتِرَامٍ . . فَقَدِ اجتمعَ له منْ نُبْلِ الطِّباعِ ، ونَزَاهةِ الأَفعالِ ، وسُمُوِّ المقاصِدِ ، ما لم يَجْتمعْ لِكَثِيرٍ منَ القُوَّادِ والضُّباطِ :

أُتيحَتْ له فُرَصٌ عَديدةٌ لِلثَّراءِ ، بِما أفاءَ اللهُ علَيْهِ من المغَانِم ،

---

(١) رسفوا : قيدوا .

فما ادّخرَ شَيئاً لِنفْسِه . . وإنَّما كانَ يَكْتَفِى بِراتِبهِ ، ويُرْسِلُ كُلَّ ما غَنمَ إلى العِراقِ .

وأُتِيحَتْ لَهُ فُرَصُ الانتقامِ منَ المتآمِرينَ عليهِ ، فَعفَا عنهُم ، واكتَفَى بِأَسرِهم ، ولم يُرِقْ قطرةَ دماءٍ واحدةً لِمن طَلَبَ مِنه الأَمانَ .

وأُتِيحَتْ لَه انْتِصاراتٌ باهِرةٌ عظيمةٌ ، فما اغْترَّ ولا تَجَبرَ . . وإنَّما ظَلَّ القَائِدَ المُتواضعَ ، ليقينه أنَّ النَّصرَ مِنْ عندِ اللهِ .

كانتْ كلُّ أمانِيهِ مَحصورةً فى إقامةِ مُجْتمعٍ إسلامىٍّ بالسِّندِ ، يكونُ جُزءًا من المجتمعِ الإسلامىِّ الكبيرِ ، ولهـذا فإنّه بَنَى عِشرينَ مَسجِدًا فى أُولَى سنواتِ الفَتْحِ ، وكانَتْ بِمثَابَةِ مدارِسَ لتَحْفِيظِ القُرآنِ ، وتَعليمِ مَبادِىءِ الدينِ الحنيفِ . .

وقدِ استطاعَ أن يُحقِّقَ هـذه الأَمانىَّ فى فترةٍ قصيرةٍ ، لأنَّ بِناءَ المساجدِ كان يَسِيرُ مع فَتْحِ المُدُنِ جَنبًا إلى جنْبٍ ، وكانَ الجهادُ بالسَّيفِ مُقدِّمةً لِلجِهـادِ بالعِلْمِ ، وسرعان ماتحوَّلَت هـذه البِلادُ التى كانَتْ تَدْجَى (١) بالوثنيَّةِ ، إلى بلاد تُضِىءُ برسالةِ محمدٍ ، وتعاليمِ دينهِ الخالدِ . .

(١) تدجى : تظلم .

من أجــل الوحـدة الإسلامية

ظَلَّ ابنُ القاسِم يَحمِلُ مِشْعَلَ الجهادِ فى السِّندِ سَبْعَ سَنواتٍ كانَ خِلالَها طِرازًا نادِرًا من الحُكَّامِ فى خُلُقِهِ وسُلوكِه ، حتى استقرَّ الفتحُ الإسلامىُّ على أَساسٍ رَكينٍ(١) .

ولكنَّ الزمنَ الذى ابتسَمَ لابنِ القاسِم طيلَةَ هــذه الفَتْرةِ ، بَدَأَ يَعْبُسُ فى وَجْهِه ، فقد جاءَه نَبأُ وَفاةِ الخليفةِ الوليدِبنِ عبدالملك ، وهو فى مَقرِّ حُكْمِه بمدينةِ الملتانِ ، وكان ذلكَ فى جُمَادَى الآخرة من العامِ السادسِ والتسعينَ بَعدَ الهِجرةِ ، أىْ بعدَ وَفاةِ الحجاجِ بعامٍ واحدٍ . .

لَمْ تُخالِجْ ابنَ القاسِمِ رِيبَةٌ ، بِرَغْمِ فُتوحاتِه العَظيمةِ فى السِّندِ ، أن القاعدةَ التى يرْتكِزُ عليهَا قد اهْتَزَّتْ تحتهُ بعُنْفٍ ، وأَنَّ المستقبلَ الذى كانَ يتلألأُ أمامَـهُ قد انسَحَبَتْ عليه غمامةٌ سوداءُ . . إنّه إذا كانَ قَد عَـدَّ مَوتَ الحجاجِ بِدَايةَ مأساةٍ نَزلتْ به ، فإنَّ موتَ الوليدِ هوالمأساةُ نفسُها . . وبخاصةٍ أَنَّ الخليفةَ الجديدَ ، سليمانَ بنَ عبدِالملكِ ، يَمْقُتُ بنِى ثِقيفٍ ، لأَنَّهُم قَومُ الحجاجِ . . كما أنَّ حَوْلَهُ عددًا مِمَّن أَقْصَاهم الوَليدُ عَن مناصِبِهم سوفَ يأتَمرونَ بِكُلِّ مَنْ نَالَ حُظْوَةً عندَ الوليدِ ، أَوْ عندَ أحدِ وُلاَتِه .

---

(١) ركين : ثابت .

تَوَقَّع ابنُ القاسِمِ أنَّ سليمانَ سَيُجْرِى تَغْيِيراتٍ شَامِلةً فى كلِّ أَنحاءِ الدَّولةِ . . وتمنَّى أنْ يَقْتَصِرَ التغييرُ علَى عزْلِهِ مِنْ وِلاَيةِ السِّندِ . .

صَحيحٌ أنَّه عاشَ بَعيدًا عن دائرةِ الصراعِ بين الوليدِ وسليمان حولَ مسألَةِ الخلافةِ ، وصحيحٌ أنَّه لم يَشْغَلْ نَفْسَهُ يَوْمًا بالسِّياسَةِ . . وإنَّما كانَ الجهادُ شُغْلَهُ الشَّاغلَ . . ولكِنَّ نَزْعَةَ الانتقامِ منْ بَنِى ثِقيفٍ لَنْ تَقِفَ عندَ حَدٍّ . . وسَيكُون ابنُ القاسِمِ ضحِيةَ النَّاقِمينَ والساخِطينَ على الحجاجِ ! !

كيْفَ يَتصرَّفُ إذَنْ ؟

هل يَشُقُّ عَصا الطاعةِ علَى الخليفةِ الجديدِ إذا حاولَ أنْ يَعْزِلَهُ ، ويَسْتَقِل بحُكم السندِ؟ وما أَكْثَرَ جُنْدَه وأَعْوَانه فيها ! !

وإذا فَعلَ ذلك . . ألا تتحَوَّلُ السِّندُ إلى مَذْبَحةٍ كُبرَى تُراقُ فيها دِماءُ المسلمينَ ، وتضيعُ هَيْبَةُ الخلافةِ !

راقَهُ الرَّأىُ الثانى ، فقرَّرَ أن يظلَّ الجندىَّ المطيعَ ، حتى ولَوْ سِيقَ إلى ساحَةِ الإعْدَامِ . .

أمّا سُليمانُ فإنَّه ماكادَ يَجْلِسُ على كرسىِّ الخلافةِ حتى بَدَأَ يُنَفِّذَ وَعْدَهُ لأَصْدِقائه ، ووَعيدهُ فى خُصُومِه . .

أمَرَ بعَزْلِ قُتيبَةَ بنِ مُسلم من وِلايَةِ العِراقِ وخُراسان ، وتَولِيةِ يزيدبن المهلَّبِ مَكانه ، ولم يَعْبأ بما يتمتعُ به قتيبةُ من شعبيةٍ كبيرةٍ فى كلِّ الأَوساطِ الإسلاميةِ .

كما أنَّ سليمانَ لم يكتفِ بعزْلِ قُتيبةَ ، وإنَّما أمر بقتلهِ إذا بدرتْ أيُّ هفوةٍ منه . . وفعْلاً قُتِلَ قتيبةُ وطائفةٌ من أقْربائِه ، وكانَ قتلهُ على هـذا النحوِ نِهايةً مُؤسفةً لقائدٍ عظيمٍ ، حقَّق كثيراً من الفتُوحَاتِ حتى وصل إلى حدُود الصين . .

* * *

كان قَتلُ قتيبةَ أَوَّلَ حلقةٍ فى سلسلة المآسى ، ثم تتابعتْ الحلَقاتُ ، وكانَ أَبشعُها على امتدادِ التاريخِ ما حدثَ لمحمد بن القاسم . .

أَصدرَ سليمانُ قراراً بِعزلهِ عن وِلاَيةِ السندِ ، وتعيينِ يَزِيد بن أبى كَبْشَـةَ مكانهُ .

كان ابنُ القاسم يَنْتظِرُ هذا القرارَ مُنذُ وفاةِ الوليدِ ، وقَدْ وَطَّنَ نفسهُ على قبولهِ . . ولكنَّه لم يتوقعْ أنْ يَتِمَّ تَنفيذه بطريقةٍ لاَ إنْسانيةٍ !

كان جالسًا فى مقرِّ الحُكمِ بمدينةِ الملتانِ حينَ دخلَ عليه يَزِيدُ بنُ أَبى كَبْشَةَ ، وبرُفقتهِ مُعاوِيةُ بنُ المُهلَّبِ ومجموعةٌ من الجنود الأَشداءِ ، وقرأَ عليهِ القرارَ الذى أصدرَه الخَليفةُ .

ماذا فَعل ابنُ القاسم حينَ سَمِعَ قرارَ عزلهِ ؟

ماذا كانَ موقِفُهُ منْ يَزيدِ بن أبى كَبشةَ الذى تولَّى مَكانَه ؟

بَلْ ماذا كانَ موْقفهُ من مُعاويةَ بنِ المهلَّبِ الذى حضَر لتكبيلهِ بالقُيودِ ؟

وقفَ رابط الجَأشِ ، هادِىءَ الأَعصابِ ، يتفرَّسُ فى الرِّجالِ الذينَ تمَّ اختيارهُم لتنفيذِ القَرارِ ، ثم تَحَدَّثَ إليهِم بِلَهْجَةٍ كُلُّها ثِقةٌ واعتدادٌ :

إننى أُرحِّبُ بِقرار الخليفةِ ، وإنْ كانتْ لا تُمليهِ مصلحةُ الدَّولةِ ، وإنَّما تُمليهِ نزَواتُ الحَاقدِينَ والسَّاخطِين والطامعينَ . .

لوْ أننى أُريدُ أن أشُقَّ عصا الطاعةِ ، وأعصِى أوامرَ الخَليفةِ ، لَهَبَّتْ السندُ كُلُّها تُعَضدُنى وتَشدُّ أزْرِى . .

ولكنْ ماذا تكونُ النتيجةُ ؟

سَيَقْتتلُ المسلمونَ ، ويُريق بَعضهُم دِماءَ بعضٍ ، وعندَها ينتهِزُ أعداؤُنا هذه الفرصةَ ، ويَنقضُّوا علينا بأسلِحَتهم ، ويَضِيعُ مِن أيْدينا ما بنَيناهُ بدِماءِ الضَّحايا وأرواحِ الشُّهداءِ . .

من أجْلِ الحِفاظِ على وحْدَةَ المسلمينَ ودِمائهم أُرحِّبُ بِقرار الخليفةِ . . ولستُ أوَّلَ من عُزلَ مِن مَنْصبِه بعدَ أن جاهَدَ وانتَصَر .

فقد عُزِلَ خالدُ بنُ الوليدِ بعدَ انتِصاره فى اليَرمُوكِ ، وعُزِلَ عَمرُبنُ العاصِ بعدَ انتِصَارهِ فى مِصر . وعُزلَ عُقْبَةُ بن نافِعٍ بعدَ انتصارهِ فى أفرِيقيا . . عُزِلَ هؤُلاءِ القوادُ العظامُ ، وكانتْ بأَيدِيهم مفاتيحُ القوَّةِ والمجـدِ والنَّصْرِ . .

ماذا فعلَ كلٌّ منهم يومَ صدرَ قرارُ عزلهِ . .

انتصرَ على نفسهِ — كما انتصرَ على أعدائهِ . وظَلَّ الجندِيَّ

المُطيعَ فى ميادينِ الحربِ والسَّلْمِ . .

حسْبِى شرفاً أن أُسْلَكَ فِى عِدادِ هؤلاءِ القوَّاد العظامِ .

إننى جئتُ هذه البلادَ ، وهىَ تَعبدُ الأصنامَ ، كما كان الناسُ يفعلونَ أيامَ الجاهليةِ ، فاستعنتُ باللهِ وخلَّصْتُها من بَراثِنِ[1] الجهلِ ، ومَحوْتُ منها آيةَ الضَّلالِ .

ولَعلكم رأَيتم بُيوتَ اللهِ فى كلِّ مكانٍ بهذهِ البلادِ ، وتلكَ ثمرةٌ مِن ثمراتِ الجِهادِ الذى بَدأناهُ منذُ سبعِ سنواتٍ ، وستظلُّ آثارهُ باقيةً ما بقَى الزَّمنُ .

ليكن للخليفةِ ما أرادَ . . فأَنا طائعٌ أمرَهُ ، خاضعٌ لِمشيئتهِ . .

* * *

بعدَ أن فرغَ ابنُ القاسِمِ من حديثِهِ تَقدَّمَ منهُ مُعاوِيةُ بنُ المُهلَّبِ والرِّجالُ الموكَّلُونَ بِتنفيذِ قرارِ الخليفةِ وشدُّوا وَثاقهُ ، وعادُوا به إلى العراقِ . .

ولمَّا عَلمَ أهلُ السندِ بما حَدثَ لابنِ القاسمِ غَشيتهمْ مَوجةٌ عارمةٌ منَ الحزنِ والأسَى ، وظلُّوا يتحدَّثُون بأَيادِيهِ عليهمْ . . فهو أوَّلُ حاكمٍ فى السندِ يُقِيم العدْلَ بين الناسِ ، ويُعامِلهُم مُعامَلةً إنسانيةً ، لا عَنَتَ فيها ولا قسوةَ ، ولا غطرسةَ ، ولا كبرياءَ . .

وأدركَ يزيدُ بنُ أبي كبشةَ أن الرأىَ العامَّ فى السندِ غاضبٌ

---

(١) البراثن : المخالب .



ابن القاسم يقيدونه بالأغلال

ساخِطٌ ، ناقمٌ على عزْل ابنِ القاسِم ، وأنهُ غير مَرْغُوبٍ فيه ، فلزمَ دَارَ الإمارةِ لم يبرحها حتى وافتْهُ المَنِيَّةُ بعدَ ثمانيةَ عشرَ يومًا . .

أما ابنُ القاسم فإنهُ عندَما وصلَ إلى العراقِ ، وعلم ماجرَى لقتيبةَ وأقربائهِ ، أيقنَ أنَّه سيلاقى نفسَ المصيرِ ! !

وفى سِجنٍ مظلمٍ بمدينةِ واسط أُلقِىَ بابن القاسِم . لِيُمَضِّىَ الأيامَ الباقيةَ من حياتِه . .

لَبثَ فاتحُ السندِ فى هـذا السجنِ فترةً من الزمنِ لا يرى شعاعَ الشمسِ ، ولا يُحِسُّ خَفَقاتِ النَّسيمِ ، كأنما كُتبَ عليه أن يسكُنَ قبرَهُ وهُوَ على قيدِ الحياةِ . .

كان الجندُ الموكَّلونَ بحِراسته ، يُلقُونَ إليه بفُتاتِ الخُبزِ ، ويُعاملُونَه مُعاملةً لا إنسانيةً بأَمرِ صالحِ بنِ عبدِالرحمن عاملِ الخَراجِ . وكان صالح يتَشفَّى فى ابنِ القاسِم ، لأنه صنيعةُ الحجاجِ قاتلِ أخيهِ آدم . . ويُوعزُ إلى الحرسِ أَنْ يُعَذِّبوهُ ويُنَكِّلوا به(١) ! !

ولكنْ كيفَ كانتْ حالُ البطلِ المجاهد فى أَثناءِ هذه المحنةِ ؟

كيفَ واجَه التنكيلَ والتعذيبَ وسوءَ المعامَلةِ ؟

إنَّ كلَّ رواياتِ التاريخِ تؤكِّدُ أنّه ظلَّ على ثباتِه وصَبْرِه وشجاعَتِهِ وجَلَدِهِ ، كما كان شأنُه فى ميادينِ الحُروبِ . . لايَجْزَعُ ، ولا يَضعُفُ . . ولا يَخْلَعُ رِدَاءَ الصَّبْرِ .

---

(١) نكل به : جعله عبرة لغيره .

وكثيراً ما كان يُرِدِّدُ هـذين البيتين :

فَلئِنْ ثَوَيْتُ بِوَاسِطٍ وبأَرْضِهَا رَهْنَ الحَدِيدِ مُكَبَّلاً مَغْلُولاَ
فَلَرُبَّ فِتْيَةِ فَارِسٍ قَدْ رُعْتُهم ولَرُبَّ قِرْنٍ[1] قَدْ تَركتُ قَتِيلاَ

وعزَّ على صالح بنِ عبد الرحمن أنْ يَظَلَّ ابنُ القاسِمِ صلْبَ العُودِ ، قَوِيَّ الإِرَادَةِ ، لا يَحْفِلُ بالتَّعْذِيبِ ولا يَكْتَرِثُ بِالتَّنْكِيلِ ، فَصَمَّمَ على أنْ يُدبِّرَ مَكِيدَةً لِلتَّخَلُّصِ مِنْه .

(١) قرن : خصم .

أيّـــام المحنـــة

كانَتْ أيامُ المحنةِ التى يمُرُّ بها ابنُ القاسم فى سجنِه متشَابِهةً متماثلةً . .

الجُنودُ المُوكلونَ بتَعْذيبه لا تأخُذُهُمْ بِـهِ رأفَةٌ ! !

المُتآمِرونَ عليهِ لا يَفْتُر لهُمْ نشاطٌ !

ومعَ هذَا كانَ ابنُ القاسمَ يَعيشُ فى غُرْفَتِهِ المظلمة على ذكْرَياتِ الفَتح . . ويستمدُّ من هــذهِ الذكريات بلْسَمًا (١) لجِراح نَفسِهِ ، وَسلْوى لأَحْزانِ فؤَادِهِ ! !

وإذا كانَ قَد عرَفَ بدايةَ المحنَة ، فإنَّ نهايتهَا ما زالتْ مَجْهُولَةً لديْه . . وإنْ كانَ يتوَقَّعُ أنها ستكُون أبْشَعَ نهَـايةٍ لهُ ولبنى ثقيفٍ جميعاً ! !

إنَّ الموْتورينَ منَ الحجاج يوزِّعُونَ أحقادَهمْ على أقاربه . . وما أكثَرَ مَنْ يهيئُونَ لَهمُ الفُرَص للتنْفيس عن هــذِه الأَحْقَادِ . .

وكانَ صَالحُ بنُ عبدِ الرحمنِ أشدَّهُم حِقْدًا وغَضَباً ، لأنَّ مَصْرعَ أخيهِ آدمَ على يَد الحجَّاج ما زالَ يُثيرُ حفيظته (١) ، ويَهيجُ غَيْظَهُ . ومِنْ ثَمَّ كانَ صالحُ دائبَ البَحْث عَنْ مَعْلوماتٍ تدِينُ ابنَ القاسم ، وتُقَدم رقَبَته لحَدِّ السَّيْف ! !

اجْتمعَ بكُلِّ مَنْ كانتْ لهُ صِلةٌ بابنِ القاسم أيامَ الفَتْح ، وراحَ

(١) البلسم : الدواء .   (١) الحفيظة : الضغن .

يَسْأَلهُم عن أخْطائه وخطاياه ، ولكنَّه لم يظْفر بجوابٍ يشْفى غليلهُ . إذْ أنَّ كلاًّ منْهم كانَ يصفُ ابنَ القاسم بأنَّهُ ملاكٌ طاهرٌ ، لا ريبة فى أخلاقِه ، ولا شائنة فى سلُوكه . . كيف يَصِلُ صالحُ إذنْ إلى مبْتغَاهُ ، حتى يثأَر لأخيهِ ، ويُهَدِّىء لواعجَ غيْظه وحِقْدِهِ ! !

سافَر إلى دِمَشْقَ لِيَلْتقىَ بِمنْ أُسروا أيَّام فَتح السِّند ، لعَلَّ منْهمْ من تَكونُ عندَهُ مَوْجدَةٌ(١) على ابنِ القاسِم ، فَيساعِده على تحْقيقِ مَأْربه !

ولكنَّه للمرةِ الثانية لمْ يظْفَر بجَوابٍ شافٍ .

وفيما هُوَ مغيظٌ محْنَقٌ لعدَم حُصولهِ على أدِلةٍ تدينُ ابنَ القاسم ، إذَا بِه يَلْتقى فجْأَةً بصديقٍ قدِيم له فى شَوارِع دمَشْق ، اسمهُ صفْوانُ .

استَضافَه هذا الصديقُ ، فذَهَب معَه إلى بيتِه ، وكانتْ هذه الزيارةُ أولَ مسمارٍ يدَقُّ فى نَعْش ابن القاسم ! ! إذْ ماكادَ الصَّديقانِ يأخذان فى الحَديثِ حتَّى لمح صالح وصيفة رائعةَ الجمَالِ تَخْطرُ فى رَدْهَة(٢) الدار .

لَمْ يجدْ صَالحُ حرَجاً فى أَنْ يَسْألَ صديقَه عن الوصيفَةِ ، وبخاصة أنَّ ملامحها غيْرُ عَربيَّةٍ ، ولشَدَّ ما كَانَتْ فَرْحته حينَ عَلمَ أنَّها بنْتُ ملكِ السِّنْد الذى قُتلَ أيامَ الفَتح .

هَديَّةٌ منَ القَدر مَنحهَا إيَّاهُ على غير موعِدٍ ! !

---

(١) الموجدة : الغضب . (٢) الردهة : الفناء .

لابُدَّ أَنَّ هـذِه الفتاةَ تكنُّ لابنِ القاسم كلَّ ما تَعرفُ البَشَريةُ منْ أَضْغانٍ وعَداواتٍ . . لا يمْكنُ لها أن تنْسَى مَصْرع أبيها ، وزوالَ عرْشِهِ وسُلْطانِه ، ونَفْيَهَا بعِيدًا عَنْ وطِنِها . .

فَكرَّ صَالحُ فى استْغلال هذه الفتاةِ لتَدْبيرِ مكيدةٍ لابنِ القاسمِ تُودى به . وقرَّرَ أَنْ يبْقَى فى استِضَافة صَديقِه بضْعةَ أيَّامٍ ، ما دَامَ القَدَرُ قَدْ أنْعَم عليه بهـذه الهَـديَّة ! !

وإذْ لحَظَ صفوانُ أَنَّ صَدِيقَه مُسْتَغرِقٌ فى تَفكِيرٍ عَميقٍ بَعْدَ رؤْيةِ الفَتاة ، سألهُ عمّا يشغَلُ بالهُ فقَالَ :

– هذه الفَتاةُ . . ! وأشارَ إلى «سيتا» ابنةِ الملك ذاهر .

ظنَّ صفوانُ أنَّ الفتاةَ شَغَفَتْ صديقَه حُبًّا ، فضَحِك وقالَ لهُ :

– أتُريدُ أنْ تَتزوَّجَها ؟

رَدَّ صَـالح :

– إنَّنِى أُرِيدُهَا لمُهِمَّةٍ أَخْطَر منَ الزَّواجِ .

قال صَفْوانُ :

– ماذا تريدُ منها ؟

قال صَالحٌ :

– أن تُساعِدَنا على التخلُّص من ابنِ القاسمِ . .

قال صفوانُ :

– وكَيْفَ ؟

قال صالحٌ :

– إنها موتُورةٌ منه . . فهوَ الذِى نَفَاهَا مِن وطنِهَا بعدَ أنْ قَضَى على سُلْطانِ أَبيهَا . .

قال صفوانُ :

– أمْهلْنى قَليلاً ، حتى أَعْرفَ خَبيئَة نَفْسِها .

وبعدَ أنْ تناولَ الصَّديقان الطعام ، خَرجَ صالحُ لِيزُور بعضَ أصْدِقائه فى دِمَشْق ، وجلس صفوان معَ الفتاةِ لِيَتحدَّثَ إليها .

قال لها :

– هل تعْرفينَ مُحمَد بن القاسِم ؟

اضْطَربتْ الفَتاةُ ، وَتَردَّدَتْ فى الإجابَةِ ، ثم قَالَتْ :

– إنَّنى رأيتُه مَرَّتيْن : الأولَى يومَ المعركةِ ، والثانية يَوْمَ قَابلْتُه فى خيمته . . وبَعْدها أسَرَنِى وأرسلَنى إلى الحجَاج . . فبعثَ بى الحجَّاجُ إلىَ دِمَشْق . .

قال صفوانُ :

– ولماذا أَسَرَكِ ؟

قالَتْ الفتاةُ :

– ظَنَّ أَننى أتآمَرُ علَيْه . .

قال صفوانُ :

– وبماذا تَشْعُرينَ نَحْوَه ؟

قالت الفتاةُ :

– أَشْعُرُ أَنَّه تَصَرَّفَ تَصَرُّفاً عَادِيًّا . .

قال صَفوانُ :

– ألا تَعْتَقِدِينَ أَنَّهُ قَسا عليك ؟

قالتْ الفَتَاةُ :

– بالعكْس . . أشْعُر أنهُ اتَّخَذَ أَبْسَطَ إِجْراءٍ مَعِى ، إذْ كان بِمقدورهِ أنْ يقْتلنى ويُعَلل قَتْلى بِأسْبَابٍ كثيرة .

قال صَفوانُ :

– كما قتَل أباك مثَلاً ؟ !

قالتْ الفتاةُ :

– إنه لَمْ يَقْتُلْ أَبى . . وإنَّما قُتِلَ أَبى فى أَثناءِ المَعْركة بِيَدِ أَحَدِ الجُنودِ . .

قال صَفوانُ :

– أنا لا أُنكرُ أنَّ أباكِ قتل فى الحَرْبِ بيدِ أحدِ الجُنودِ ولكِن منِ الذِى أَمَرِبقتله ؟ إنه ابنُ القاسِم بالطَّبْعِ .

قالتْ الفتاةُ :

– ماذَا تُرِيدُ أَنْ أقولَ . .

قالَ صفْوانُ :

– أنْ تُصارِحِينى بحَقِيقَةِ مشَاعِرِكِ نَحْوَ ابنِ القاسِم .

قالَتْ الفتاةُ :

– أنا لا أُضْمِرُ لهُ أىَّ بَغْضَاءٍ .

قال صفْوانُ :

– بعْدَ كلِّ هذا لا تُضْمِرينَ لهُ أيَّ بغْضَاءٍ ! !

قالَتْ الفتاةُ :

– إنَّه لَمْ يَفعلْ إلاَّ ما يمليه عَلَيْه واجبه .

قال صَفوانُ :

– اسمعى أيَّتها الفَتاةُ . . إنَّنى أُريد أن أُساعدَك علَى العَودة إلى وَطنِكِ . . مقَابلَ أنْ تساعدينى فى القضاءِ على ابنِ القاسِم .

قالت الفتاةُ :

– ماذَا تريد أنْ أفعلَ ؟

قال صفوانُ :

– أن تكْتبِى رسالةً إلى الخَليفَةِ تَذكرينَ فيها أنَّ ابنَ القاسِم اعتَدىَ عليْك ودَنَّسَ شرفَكِ بعدَ مقتل أبيكِ . . ولمَّا أعلنتِ هذَا الأمْر أمامَ بعْضِ الجنودِ ، أسرَكِ وأرسَلكِ إلى العراق . .

انْتَفَضَتْ الفتاةُ ذُعرًا وقالتْ :

– معاذَ الحقِّ ياسيِّدى أن أفْترىَ على هذَا الشابِّ . . إننى لمْ أَرَ منهُ إلاّ كلَّ عفَّةٍ ونُبل . . كيفَ أدَّعى عليْه مالمْ يفعلْ ، وهو الذِى حَافظَ على طَهارتى ، وصانَ عرْضى . . ! !

قال صَفوانُ :

– إنكِ لم تتمرسى بالسياسةِ بعدُ . .

قالت الفتاةُ :

– هل التمرُس بالسياسةِ أن أقولَ ما لَمْ يحدثْ ، وأَدَّعى ما لَمْ يَحْصُلْ ، وأفْتَرىَ على الأبرياءِ كذِبًا ! !

قال صَفوانُ .

– أيتها الفتاةُ . . إنك فى مأزقٍ ، وابنُ القاسِمِ فى مأزقٍ . . أنت فى الأسْرِ ، وهو فى السِجْن . . ومهما ألصقتِ بِهِ من التُّهم لنْ تزيدِى حالتهُ سوءًا . . فالأفضلُ أن تُخَلصى نَفْسَك منَ الأسْر . .

صَمتَت الفتاةُ بُرهةً ثم قالتْ :

– دعنى أفكرْ ! !

استشهاد المجاهد

انصرفتْ الفتاةُ إلى مَخدعها تُفكرُ فيما عرضهُ عليها صَفْوَانُ . .

إن العَوْدَةَ إلى الوطنِ كانتْ حَلمًا من أَحْلاَمِها ، وأُمْنِيَة منْ أَمَانيها . . أَمَّا الآن فقدْ أطلَّ عليها بَصِيصٌ (١) من الأملِ ، وهَبَّتْ على حياتِها الجافَّةِ نَسْمَةٌ رقيقَةٌ من التَّفَاؤُلِ . .

أَملٌ وتَفَاؤُلٌ ؟ ماذَا حَدَثَ ؟ هل ابْتسم لها القدرُ ؟ هل غَيَّرَ الزَّمَنُ منْ طِبَاعِه ؟

إنَّ بِيَدِها الآنَ أن تُحَطمَ قَيْدَها ، وتُصبِحَ حُرةً طَلِيقَةً .

وبيدِها أيضًا أنْ تَنتقِمَ مِنَ الشَّابِّ الذِى نَفاها بَعِيدًا عن وطنِها . .

ولكِن ما إنْ وردتْ على ذهْنِها فِكْرَةُ الانْتقامِ من ابنِ القاسمِ ، حتى انتفضَ قلبُها بين ضلوعِها ، وبَدَأَ من جَديدٍ يَهمِسُ بِهمساتِ الحبِّ ! إن عاطِفَتَها نحوَ الشابِّ الذى أَحَبَّتْه مازَالَتْ مشْبُوبةً قويَّةً . .

هل تَخُونُ قلبَها وحُبَّها ؟ هلْ تَجْنِي على الشابِّ الذِى لم تَرَمنه رِيبَةً ولا شُبهةً ؟

وإذَا فعلتْ ذلكَ فَماذَا تَجْنِى ؟

العَوْدَةَ إلى الوطنِ ! !

---

(١) بصيص : بريق

ولماذا تَعُودُ ؟ إنها لَن تكُونَ أَميرةً ، كما كانت فى عهدِ أَبيها ، ولَنْ تكونَ صاحِبَةَ جاهٍ أوْ سُلطانٍ .

إذَنْ ليستْ هِيَ صاحِبَة المصلحَةِ فى قتلِ ابن القاسِم ، وإنَّما صفْوَانُ هُو صاحِبُ المصلحةِ . . كيف تَتصرَّفُ معَ هذا الرجُلِ ؟ ماذا تَقُولُ لهُ عندَما تَلتقِى بِه ؟ قَرَّرَتْ أنْ تَرفُضَ طلبهُ ، ولْيكُنْ ما يكونُ . .

أما صفْوانُ فقدْ انتظَرَ حتى حَضَرَ صَالحٌ ، وأَخبرهُ بما جَرَى بينهُ وبينَ الفتاةِ ، ثمَّ باتا ليْلَتهما مُسَهّدَيْنِ مُؤَرّقَيْنِ حتى انبْلجَ نُورُ الصَّباحِ . . وعندَ مُتُوعِ الضُّحا دخلَتْ الفتاةُ على الرجُلينِ لتعلِنَ رفضَها ، ولكِنَّ الرَّجُلَيْنِ كانا قد أعَدَّا مَظلمةً ومهراهَا باسم الفتاةِ . . وقَرَّرَا أن يُقدِّماها إلى الخليفَةِ .

كانت المظلمةُ تَتضمنُ اعتِداءَ ابنَ القاسِم على الفتاةِ ، وتَطلبُ مِنَ الخَليفةِ عقابَهُ بما يَتلاءَمُ وهـذهِ الجَرِيمةَ الشّنْعاء ! !

قرأَ الخليفةُ هذه المظلمةَ ، فوجَدَ تَبْرِيرًا لِقَتْلِ ابنِ القاسِم ، ولم يتردَّدْ فى إصدارِ حكم عليه بالإعدام . .

تَسَلمَ صالحٌ حُكْمَ الإعدام ، وانْطَلَقَ بهِ إلى العراق ، وكانَ مُبْتَهجَ النَّفسِ ، لأَنَّـهُ سينتقِمُ من أَعزِّ فِتيانِ بنى ثَقِيفٍ . . وعندَما وصلَ إلى دارِ الإمارَةِ سَلَّم القرارَ لِيَزيد بنِ المُهلَّبِ ، واتَّفقَا معًا علَى منْ يتولَّى القِيام بإعدَامِ ابن القاسِمِ . .

ولمَّا جاءَ يوُم تنفيذِ الإعدامِ سِيقَ ابنُ القاسِمِ إلى ساحَةِ

الموتِ . . سِيقَ البطلُ المجاهِدُ الذِى فتحَ السِّندَ وَجَعلها وِلايةً إسلاَمِيَّةً . . سِيقَ الشابُّ الذى ملأ الدُّنيا دَوِيًّا وهُوَ دونَ الرَّابعة والعشْرِينَ . .

وبَعدَ أنْ تُلِيَ عليه قرارُ الإعدام التفتَ إلى الرِّجالِ الذينَ حَضرُوا لِلتَّشَفِّى فيهِ وقَال بصوتٍ مُتَّزنٍ وقورٍ :

— رُوَيْدكُم أيُّها الشَّامِتُونَ . . إنَّ هذهِ الميتةَ لاَ يلقاهَا إلاّ الشُّرفاءُ . . إنَّ كلّ قطرَةٍ من دِمَائى سَتكونُ لُؤْلُؤَةً نادِرَةً فى جيدِ التاريخِ . . انْظرُوا إلى ماضِىَّ القريبِ . . تجدُوهُ مُرصَّعًا بالفتوحاتِ . . سَلُوا كلَّ شبرٍ فى أرضِ السِّندِ : مَن طَهَّرها مِن الوثنيةِ ؟ مَنْ أزالَ عنها ظَلاَمَ الجهلِ ؟ مَنْ وصلَها بِنورِ اللهِ ؟ مَنْ أَقَرَّ فيها مبادِىءَ الإسلاَمِ ؟

بَلْ سلُوا أَنفسَكم : أَيْنَ كنْتمْ ونَحْنُ نَخُوضُ غمراتِ الحربِ(١) ، ونُعايِشُ الْمَوْتَ والهولَ والفَزعَ . . أين كنتم ونَحْنُ لا نهتمُّ بِما يصيبُنا مِن جِرَاحٍ ، قَدرَ اهتمامِنَا بِما نُحقِّقُ مِنَ انتِصَاراتٍ ؟

أينَ كنتُم وقد أقبلَتْ علينا الدُّنيا فأعرضنَا عنها ، وعِشنَا بِالجهادِ ولِلجهادِ؟

إنَّكم تحضُرُونَ اليَوم لِتشهدُوا ميتةَ شابٍّ عزفَ عَن مُتَعِ الحيَاةِ ، ووهَبَ كلَّ ذَرّةٍ فى كِيانِه للهِ ورسُولِه . . ألاَ تخْجَلُونَ مِما

(١) غمرات الحرب : شدائدها .

يَقُوله عنكم التاريخُ ؟ ألا تَستَحُونَ (١) مِمّا يتحدَّثُ بهِ عنكم الزمنُ ؟ كفاكُم خِزيًا وعارًا أن يَلقَى المجاهِدُونَ مصرَعهُم على أيدِيكم ! !

تقدَّمْ . . تقدَّمْ أيُّها السيَّافُ . . وألحقنِي بالبررةِ الأطهار.

* * *

ولما فرغَ من كلمتِهِ تفرَّسَ (٢) فى وجوه الحاضِرينَ فوجدَها قد علاها الوُجُومُ ، إلا شخْصًا واحِدًا كان يُحَدِّقُ فى ابن القاسِمِ بعينينِ تتقِدانِ الشَّرر ، ذلك هو صالحُ بن عبد الرحمن . .

تقدَّم السيَّافُ من ابن القاسم ، وأهوى بسيفهِ على رقبتهِ فَفَصَلَها عن جسدِهِ ، وسقطَ فاتحُ السندِ على الأرض شهيدًا ، لِتصعدَ رُوحُه الطاهِرةُ إلى نُزل الأبرار والصِّدِّيقينَ .

---

(١) تستحون : تخجلون . (٢) تفرس : تأمل .

إخفاء السر

نام أعوانُ الخَليفةِ ملْءَ جُفُونِهمْ بَعْدَ مقْتَلِ قُتيبةَ وابْنِ القاسِمِ ، وظَنُّوا أَنَّ مَسْرَحَ السِّياسةِ قَدْ خَلاَ منْ كلِّ مُنَاوِىءٍ ، وأنَّ المُستقْبَلَ أصْبحَ أمامَهمْ وضيئًا بَاهرًا . . ولكنَّهُمْ فُوجِئُوا بغَضَبِ الرَّأىِ العامِّ فى السِّندِ والعراق وخراسان . . وأعْلَنَ كثيرٌ منَ المسلمينَ سُخْطَهُم على مَصيرِ البَطَلَيْنِ المُجاهِدَيْنِ . .

وكانَ الخَليفةُ كلَّما عاتَبَهُ أَحَـدٌ على قَتلِ ابنِ القاسِمِ ، يعْرِضُ عَلَيهِ مظْلمَةَ الفَتاةِ ، فلاَ يجِدُ ما يُدافع بِهِ عن البطلِ الشهيدِ . .

إلَى أَنْ حَدَثَ ذاتَ يومٍ وكانَ الخليفةُ وسَطَ جَمعٍ مِنْ رجالِهِ ، أَن اقتحمتْ فتاةٌ عليه المَجْلِسَ ، وعبرَاتُها فَياضةٌ على خدَّيها ، وكلمَاتها تَقْطُرُ ألمًا وحزنًا . . قالتْ فى صوتٍ مُجهشٍ :

– لا ذنبَ لى فيما حدَثَ لابنِ القاسِمِ . . إنَّنى بريئةٌ مِنْ دمِهِ . . بَريئةٌ مِنْ دمِهِ . . ابْحثُوا عمن أدانوهُ وعاقِبُوهُمْ . .

حدَّقَ الخَلِيفةُ فى الفَتاةِ ، وقالَ لَها :

– مَنْ أنتِ ؟

قالتْ :

– أنا « سيتا » ابنةُ الملِكِ ذاهِرِ المقْتول . . أنا التِى جِئتُ أَسيرةً إلَى دِمشق ، لِأَعملَ وَصيفَةً فى قصورِكمْ . .

قال الخليفةُ :

– هدِّئى مِنْ روْعِكِ أيَّتُها الفتاةُ . .

قالَتْ :

– كيفَ أُهدِّىءُ مِن رَوْعِى يا خَليفَةَ المسْلمينَ ؟ وقد قَتلتُم إنْسانًا بَرِيئًا ، ونَسَبْتُمْ إلىَّ التهمةَ التى قَتَلْتموهُ بسببها . .

قال الخليفةُ :

– قلتُ لكِ هدِّئى من روْعكِ . . وسَنَصلُ إلى الحقِيقة . .

قالت :

– عِدْنى أَن تَقْتَصَّ (١) من الجناةِ . .

قال الخليفةُ :

– أعِدُكِ . . ولكِن من هُمُ الجَنَاةُ ؟

قالت الفَتاةُ :

– الذين اتخذوا منِّى وسيلةً لقتل ابنِ القاسمِ .

أَخرج الخليفةُ المظلمةَ وقال لها :

– اقرئى هـذه المظلمةَ . .

– تناولتْ الفَتاةُ ورقةً منْ يدِ الخليفةِ ، ثم قرأَتْ ما فيها وصرختْ :

– كذبٌ . . افتراءٌ . . أَنا لَمْ أَكتُبْ شيئًا من هـذا . .

قال الخليفة بدهشةٍ :

---

(١) اقتص منه : جرحه مثل جرحه . أو قتله عقاباً له على جريمة قتل ارتكبها .

– وإذا تَبَيَّنَ أنكِ صاحِبةُ هذه المظلمةِ ؟

قالت الفتاةُ :

– عاقِبنى كيف شِئْتَ .

قال الخليفة :

– إنَّ عقُوبةَ الكَذِبِ فى هذَا الموقفِ هو القَتلُ . .

قالَتِ الفتاةُ :

– لِيكُنْ . . أَنا بَرِيئةٌ . والعقوبةُ ستُطبقُ على غيرى ! !

التفت الخليفةُ إلى صالح ، وكان حاضرًا فى المجلس ، وقال له :

– ما رأْيك فى قول الفتاة يا صالح ؟

قال صالح :

– إنها أُصيبتْ بِلَوثةٍ ، وتَهذى بكلامٍ لا معْنى لَه . .

قال الخليفةُ :

– ابْعَثْ بها إلى من يُعالجها ؟

ردّ الشَّيْخُ صفْوانُ :

– يُستحسنُ .

قالت الفتاةُ :

– أنا لستُ مَريضةً . إنَّ هذا الرجلَ (وأشارت إلى صالحٍ) يُريدُ أن يقضىَ علىَّ ، كما قَضى على ابن القاسِم . .

قال صفْوانُ :

- يَجِبُ أن نُعالجها قبلَ أن يَتفاقَمَ عليها المرضُ . .

حاولَتْ الفتاةُ أن تَدفعَ تهمةَ المرضِ عن نفسها ، ولكنَّها لم تَتمكَّنْ ، لأَنَّ عدداً مِنَ الجنودِ أحاطوا بها . وأخذوها عنْوةً إلى مكانٍ منعزلٍ فى إحدَى ضواحى دِمشق .

وهنا أَحسَّ صالحُ وصفوانُ أنهُ لابُدَّ مِنَ التخلُّصِ منها قبلَ أن تتضِحَ الحقِيقة لعينَىْ الخليفةِ ، لِما عُرِفَ عنه من حُبِّ العدالةِ ، وأنَّه سيُحاوِلُ ذات يومٍ معرفةَ الحقِيقة منها . ولذا قرَّر الرجُلانِ أن يُرسِلا إليها من يَقتلها ، إخفاءً لسرِّ الجريمة . وكان ما أرادَاه .

ومع غُروبِ شَمْسِ اليومِ التالِى كانتْ الفتاة محمولةً على أعناق أربعةِ رجالٍ ، وأُشِيعَ أنَّ المرضَ اشتدَّ عليها فى أثناءِ الليل ، فأسلمَتْ أنفاسها قبلَ أن يطلعَ الفجرُ ! !

محتويات الكتاب

رقم الايداع بدار الكتب المصرية ٥٦٨٣/١٩٧٦

الترقيم الدولى ٢ — ٦ — ٠٥٦ — ٢٨٦ — ISBN ٩٧٧

مطبعــة نهضــة مصر

الفجالة ـــ القــاهرة

